عُودُ السُّوس

الطبعة الأولى
2017

عُود السُوس

مصطفى حنيجل

تصميم الغلاف: محمد حامد

التنسيق والإخراج الداخلي: إسلام الحماقى

رقم الإيداع: 25328 / 2016

الترقيم الدولي: ISBN: 978 - 977 - 6595 - 04 - 0

المدير العام: إيناس ناصر

مدير التوزيع: حمزة القاضى

01156292096

Davenshe2017@hotmail.com

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الناشر

عُود السُوس

بقلم

مصطفى حنيجل

الإهداء

إلى روح نقية رحلت وتركت سيرتها الطيبة ترددها الألسنة...

إلي أبى رحمه الله...

الحاج محمود حنيجل

عود السوس

فى هذا الركن البائس ألقى بى بصحبة عشرات الجثث الحية التى تنبض بالإجرام، ما بين اللصوص والزناة وبائعى الذمم والشرف سكن جسدى الذى دفعه عسكرى الحجز بعدما نفض عن ملابسه التى تلوثت بقايا الدماء التى غسلت بها يدى بعدما أتممت ما فعلت!

بثبات لم تعهده نفسى من قبل افترشت الركن القريب فى غرفة الحجز فتأملتنى عيون الزملاء المحبوسين بشىء من الاستنكار وكأنهم يستكثرون على أمثالى السطو على مجالهم الإجرامى، فكيف لذو الجسد الهزيل الذى برزت عظام صدره وهربت الدماء من وجهه أن يفعل ما فعلت!

اقترب منى أحدهم وأثقل بكفه على كتفى فى افتعالٍ واضح وقال:

- جاى فى إيه ياض!

لم يتلق ردًا بعدما التحف لسانى بصمت لم أدرِ أنا نفسى سببه، فاعتبره ضعف من جانبى وشرع فى تأمل ملابسى التى جفت عليها الدماء قبل أن يشاركه باقى الموجودين الذين أعدوا العدة لاستقبال وافد جديد جاء ليقتسم معهم أرضية هذا القبر فى انتظار العرض على النيابة صباحًا.

كالكعكة التف الجمع حول جسدى الذى طالته أيديهم فى إشارات ولمسات مهينة قبل أن يرتفع ضغط الدماء فى رأسى التى عادلت حرارتها باطن الأرض الملتهبة فطرد حلقى صيحة بددت همساتهم الساخرة واصطبغت العيون من حولى باللون الأحمر فقفزت وكأننى أصبت بمس من جن لا يعرف الرحمة.

نهشت أظافرى الوجوه التى طالتها فقشرت الجلد ومزقت اللحم فى مباراة كنت فيها خصمًا لخمسة وجوه

وعشرة أيادى عجزت عن الدفاع عن أجسادهم فى مواجهة ممسوس جسده مصاب بالسل!

وكأننى مسير بقوة لا أعرف مصدرها لم أستطع التوقف عما بدأت فارتفع العواء وشقت صيحاتهم صمت القبر قبل أن يدخل الجندى ومعه مرافقيه بين أيديهم العصى لتفاجئهم هيئة المحبوسين التى تحولت جلود وجوههم إلى قطع مهترئة لا تصلح للحياة!

تكاثرت العصى التى طالت جسدى من كل اتجاه فسقطت أرضًا بين أقدامهم، وتقوقعت اتقاءًا لركلاتهم التى انهالت فدكت عظامى قبل أن يصرخ أحدهم:

- مش مكفيك اللى عملته يا روح أمك، إنت وقعتك سودا.

قالها وأشار لمرافقيه فقاموا بسحب جسدى على الأرض كالبهيمة النافقة فانسلخت رأسى التى نهشتها أسئلة صارخة وطئت على عقلى الذى انفرج تحتها فى ضعف فصارت تولجه بكل وحشية و..

هل لى أن أفعل ما فعلت!.

أأعيش مثل كل من عايشت.. مهانًا؛ ذليلًا لا يخرج من جوفى ولو شبح احتجاج!

ازداد صراع الأسئلة على عقلى الذى اقترب من الذوبان قبل أن يلقى بجسدى فى غرفة ضيقة كأفق الجاهل، صرت فيها وحيدًا بعدما اعتبرونى خطرًا على المساجين.

رافقتنى وحدتى وأسئلتى التى صامت عنها الأجوبة فحاولت تذكير نفسى.. من أكون؟

هل كنت أستحق هذا المصير الذى لم أنتظره يومًا..

أغضمت عينى فى ألم بعدما قررت لأول مرة فى حياتى ألا أنتظر ما سيأتى به الصباح القادم بعدما زارت ذاكرتى أيامى القريبة التى مضت و..

* * *

تعلن الشمس بشروقها ميلاد يوم جديد خرج من رحم الغيب إلى عالم الأحياء حاملًا بين كفوفه الرزق

والفرح والألم والبكاء، بعض الأيام تشعر بأنها تسخر منك ومن وجودك، تتركك خائف مرتجف مما تخبئه لك بين طيات عقاربها وثنايا ثوانيها، تمر خلسة مرور الكرام وتتركك تستكين ثم تعود كعادة اللئام وتهبط على روحك بكل ثقلها فتعود إلى طبيعتك المرتجفة.. تصلى إلى الله وتبتهل لكى يخفف وقع طرقات يديها على رأسك.

لا أنسى تفاصيل هذا اليوم الذى نحت بأظافره علامات غائرة على جدار روحى عندما صحوت من نومى على صوت طرقات كأنها إعلان مفاجئ لقيام الساعة و....

- إنزل يابنى..

قالها صالح زميل أبى فى العمل وهو يكاد يفقد الوعى وصدره يعلو ويهبط كأنه يئن مما يحمل فنزلت لأقتسم معه ثقل الحمل وأفتش عما فى صدره و...

- خير يا صالح؟

- أبوك تعب شوية ونقلناه المستشفى وهو دلوقت فى العناية المركزة!

قالها وأطبق بيديه على كتفى وأمرنى أن أخبر والدتى بهدوء لنذهب إلى والدى الذى اعتاد زيارة الأطباء فى الفترة الأخيرة، فصعدت ووجدت والدتى الصامدة القوية تقف بجوار الباب وقد تهيأت للخروج وكأن قلبها أخبرها عما يدور فصحبتها بلا كلام إلى أسفل حيث ينتظر صالح الذى استأجر سيارة لنذهب إلى المستشفى ونصطدم بسواد الأيام الذى بدأ عندما وصلنا واستقبلنا طبيب الرعاية المركزة الذى اختلى بى فى أحد الأركان بعدما عرف أننى ولده وقال لى فى هدوء:

- حالة الحاج حامد حرجة.. إدعيله ربنا ما يطولهاش عليه.

وكأن الله زرع فى قلبى بذورًا من الثلج الذى خدر أعصابى فاستقبلت كلمات الطبيب باستسلام تام وتماسكت أمام أمى حتى لا تسقط وتنام على سرير المرض بجانب أبى

الذى تجلطت الدماء فى تلافيف مخه واستفرد به الشلل الذى سيطر على أطرافه الأربعة!

أشفقت على أمى عند سماعها الخبر لكنها خالفت كل ما توقعت وارتضت بقضاء الله ودعته بتوسل أن يخفف قضاؤه ويلطف بأبى الذى تسطح جسده على سرير منتفخ بالهواء وقد ثبتت نظراته فى اتجاه واحد كأنه يرى ما لا نرى.

* * *

أبى (حامد نوار)..

حامد نوار رجل ستينى مسالم، يعمل بأحد المطاعم الشعبية، لا يمتلك فى هذه الدنيا سوى صحته العليلة وشقة إيجار قديم فى عقار متهالك يقاوم الانهيار ليأوى بعض الأسر رقيقة الحال، تركزت ثروته فى تربيته لى ولأختى كما كان يقولها دائمًا وبفخر..

- أنا علمت أحمد ونورا أحسن علام.. ده عندى أهم من كنوز الدنيا دى.

لم يكن ذات يوم يحمل فى باطنه أى أطماع من الدنيا، فلم يهتم باقتصاد ولو مبلغ بسيط تحسبًا لتقلبات الأيام التى كان دائمًا ما يسخر منها ويقول:

- إصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب!

دفعنى فى طريق التعليم حتى وصلت إلى السنة الثالثة فى كلية الآداب لدراسة العلوم الاجتماعية، بينما أختى نورا لا زالت تدرس فى الثانوية العامة وساعدته أمى ربة المنزل على اشتداد عضده فى مواجهة كل معوقات الحياة فى سبيل تعليمنا لنصبح فخرًا له كما يحلم.

وكأن الدنيا تقف وجهًا لوجه أمام كل صاحب حلم ولا يهدأ لها بال إلا عندما تكسر أنفه وتنكل به ليصبح عبرة لكل حالم، ولعل هذا ما يدور فى ذهن أبى

الذى خانته أجهزته الحيوية تباعًا وكأنها تتواطأ ضده حتى اكتملت المؤامرة التى امتدت لشهر قبل أن يأتنى اتصال من إدارة المستشفى:

- البقاء لله.. الحاج حامد توفى.

* * *

بنصف روح استقبلت خبر وفاة والدى بعدما طارت النصف الأخرى إلى السماء معه، وبنصف روحٍ أيضًا وقفت متكئ على حزنى أتقبل العزاء فى والدى الذى أصبح ذكرى طيبة يرددها الناس الذين حضروا تشييع جثمانه وتوديعه لحين يتجدد اللقاء.

وكأن النصف الأقوى فى روحى هو الذى رحل فتاه عقلى فى الذهول ولانت عظامى وانحنى ضهرى وأوشكت على السقوط بين الأقدام لترفعنى يد أعرفها جيدًا.

يقولون أن البكاء فى هذه اللحظات رحمة بالحى وعذاب للمتوفى، فاخترت عذابى مقابل رحمة أبى ومنعت

عينى من البكاء بينما لم أستطع منع عودى من السقوط قبل أن يرفعنى صالح من على الأرض ويصلب ظهرى ويقول بحزم:

- إنت دلوقت بقيت راجل البيت يا أحمد، لازم تجمد.

بلا صوت أومأت بعدما انحسرت الكلمات فى جوفى الذى جف فأكمل صالح:

- التلات أيام بتوع العزا يخلصوا وليا معاك كلام تانى.

* * *

صالح الصعيدى..

هذا الشاب الثلاثينى قوى البنية الذى زحف من إحدى قرى الصعيد إلى القاهرة بحثًا عن لقيمات أحلها الله وتنقل بين عدة أشغال حتى استقر به الحال إلى مطعم الحاج " فريد الطحان " ليستقبله والدى الذى توسم فيه خيرًا واعتبره وريثًا

شرعيًا لأسرار الصنعة التى امتزجت بها دماؤه.

لم تتوقف علاقة صالح بأبى عند هذا الحد، بل غلفتها الجوانب الإنسانية التى عاش أبى بها محبوبًا بين الناس، فلما استشعرأصالة هذا الشاب الذى داست عليه أقدام الدنيا تبناه وقتل بداخله الضعف الذى حاولت الغربة توليده بداخله.

وبطبيعة الحال نبتت بذور الخير التى زرعها أبى فى حياته وأصبحت شجرة صلبة قوية استندت عليها بعد رحيله، فلم يتركنى صالح لحظة واحدة إلا وشاركنى إياها وكأنه رسول من الله جاء ليثبت إيمانى بعدما اهتزت روحى التى قاربت على الانهيار، ومع اقتراب انتهاء أيام العزاء الثلاثة اقترب منى وأطال النظر إلى وجهى وقال بصرامة:

- هتعمل إيه يا عم أحمد؟

بصوتٍ مهزوز قلت:

- هعمل إيه فى إيه!

بجدية قال:

- بص يابنى.. أنا عارف البير وغطاه.

لم أرد فأعاد النظر إلى عينى مباشرة وقال:

- إنت لازم تفكر هتصرف إزاى على البيت من بعد عم حامد الله يرحمه.

قالها ونزعنى بقوة من هوة الحزن ليلقى بى فى تيه الواقع، فأبى قد رحل، ولم يعد لنا عائل، أمى ربة منزل وأختى طالبة وأنا لازلت أدرس فى الجامعة ولا نملك من الدنيا سوى الستر وبعض الفتات الذى تبخر فى تخريج والدى من الدنيا إلى عالم أفضل وأكثر رحابة.

وجدت نفسى فى مواجهة المجهول الذى لا اعرف من أين أبارزه فسقطت فى يد صالح الذى دلنى على الطريق عندما قال:

- إنت تيجى المطعم وتشتغل مكان أبوك الله يرحمه وتبقى لقمة عيش حلال يابنى.

أمام عشرات الأسئلة وقفت بين الحيرة والخوف وعدم وجود إجابات تطمئن قلبى، فلم أجد بدًا من التسليم بما قاله صالح وقلت له باستسلام:

- حاضر يا صالح.

بابتسامة تسللت إلى روحى فرطبتها قال صالح:

- تمام يا بطل.. تصلى الفجر وأشوفك فى المطعم بإذن الله.

أومأت بلا إجابة فاقترب ودس فى جيبى بعض الأوراق المالية، حاولت التمنع فقال بحنو:

- دول سلف ياعم.. هتسددهم لما تشتغل وتقبض.

أقسمت له أننى لا أحتاج إلى شىء فقال:

- مش عاوزك تخلى بيت حامد ناقصه حاجة.. فاهم؟

استسلمت وقلت:

- فاهم.

استأذن صالح فصعدت إلى والدتى التى ذبلت روحها وقل كلامها وجلست فى أحد الأركان تحتضن أختى فاقتربت منها لتجذبنى بداخل حضنها الذى احتوانى وأختى بقوة وكأنها تريد إيداعنا داخل بطنها مرة أخرى خوفًا علينا من بطش الأيام فمسحت دمعاتها برفق وقلت:

- أنا هنزل أشتغل فى المطعم يا ماما.

بصوت مرتعش قالت:

- مطعم إيه اللى تروحه.. إنت هتكمل كليتك!

بيأس قلت:

- وهنعيش إزاى يا ماما؟

بقوة قالت:

- أنا هنزل واشتغل وبيت حامد هيفضل مستور.

بغضب قلت:

- يعنى عيشتى طول عمرك مع أبويا ست بيت ولما يموت هخليكى تشتغلى!

من بين دموعها قالت:

- ومستقبلك يابنى!

قلت بحزم:

- كل حاجة بإيد ربنا يا ماما.

قلتها وأنا أحاول تهيئة نفسى إلى الدخول فى مرحلة جديدة فى حياتى تشوبها كتل ضبابية أحاطت بى فقررت إزالتها بقوة ونمت ليأتى فجر اليوم التالى وأتوجه إلى مطعم الحاج " فريد الطحان ".

* * *

مطعم الحاج " فريد الطحان "..

يقف على ناصية مميزة فى أحد الشوارع الرئيسية القريبة من موقف سيارات الأجرة الرئيسى بالمدينة ويمثل قبلة لكل وافد من الأقاليم لما يملكه من شهرة

امتدت لعشرات السنين منذ تم تأسيسه على يد الطحان الأكبر.

يقولون أن لكل عتبة رزقها، وأما عن عتبة مطعم الطحان فلا حرمها الله من الرزق ليلًا ولا نهارًا، فطالما البطون خاوية تنادى فلا بد للجيوب أن تلبى النداء وتبرز ما ينام داخل جيوبها فى زحام لا ينقطع عن عتبة هذا المطعم الذى يلصق الليل بالنهار ليعبئ البطون فى مباراة غذائية حادة.

فى الرابعة صباحًا كنت قد وصلت إلى الطريق المقابل للمطعم فنظرت إليه كأنها المرة الأولى التى أراه فيها، بدا لى كشيخ عجوز يقف فى هذا المكان منذ مولده حتى شاب شعره وتساقطت أسنانه ودبت الكهولة فى عظامه فانحنى ظهره، غطت الأتربة واجهته التى التصقت بها الآثار الزيتية فيما اعتلى مقدمته اسم الطحان الذى تم تشكيله بقطع خشبية قصت بخط

ديوانى بديع، تأملته فاكتشفت اختفاء النقطة فى حرف النون وأغلب الظن أنها سقطت بفعل الزمن، واقتربت أكثر حتى وقفت فى مواجهته لا يفصل بينى وبينه سوى أمتار قليلة وكأننى أعبر الخط الفاصل بين حياتى السابقة والمجهول القادم!

استقبلنى صالح الذى تقدم وجذبنى من ذراعى وقال:

- تعالى يابن الغالى.

قدمنى صالح:

- ده أحمد إبن عم حامد الله يرحمه.. هيشتغل معانا.

بنظرات طويلة متفحصة تأملنى أحدهم وقال:

- أهلا.

تقدم صالح وعرفنى به:

- ده عم نصر، كبير المحل.

ابتسمت له فلاحقنى بنظراته الطولية التى لم تنقطع وقال:

- الله يرحم أبوك يابنى، بس إنت هتعمل إيه هنا!

لم انطق فتدخل صالح:

- جرى إيه يا عم نصر، هو إحنا دكاترة يعنى!

قالها فهز نصر رأسه التى هجر الشعر مقدمتها فانعكست عليها إضاءة المصباح البيضاء قبل أن ينفرد بى صالح فى أحد أركان المطعم وقال:

- سيبك منه يا عم أحمد، الراجل ده بيكره نفسه.

بضيق قلت:

- طب وأنا هعمل إيه هنا يا صالح؟

ابتسم وقال:

- إنت متعلم ومخك نضيف، هتقف معايا أنا وتساعدنى يا عم، أنا بقف فى صالة تقديم الطلبات وإنت هتغرف لى الطلب فى الأطباق، وياعم أنا هساعدك وأشيل عنك لحد ما تاخد على الجو.

لانت ملامحى وقلت صالح:

- طب ونصر ده ماله كده مش مريح!

بصوت خافت أجابنى:

ياعم روق كدا بس.. نصر ده.....

* * *

نصر عصفورة..

عجوز ستينى، تناثرت الشعيرات البيضاء المتباعدة فى ذقنه كأشواك الصبار فى صحراء قاحلة، كبست قامته فبدت أقصر من لسانه الذى غمس فى مستنقع من البذاءة حتى اصطبغ بالقبائح، نبت له كرش صغير وأنف كبير وشفاه غليظة ورأس غاب عنها الشعر عنها بفعل الزمن فأصبح ما تبقى منه أطلال تتشبث بالحياة.

لم يعرف على وجه التحديد تاريخ عمله فى مطعم " الطحان " فكل من فى المكان جاءوا فوجدوه على هيئته هذه كأنه لم يكن يومًا صغيرًا، لأصابعه أثر لا يمحى من قفا كل صبى ألقى به القدر ليعمل فى هذا المكان، يهابه الكبير قبل الصغير لما يتمتع به من حصانة وهبه إياها الحاج " فريد الطحان " فأصبح لقبه بين العمال " نصر عصفورة ".

بدا وجهه شديد السواد كقلب خرب مهجور رفع الله عنه رضاه ورحمته فبعدت بعينى عنه واستعذت بالله من الشيطان الرجيم قبل أن يبتسم صالح ويقول:

- ياعم ما تشغلش دماغك به.. وحاول تكسبه.

بتقزز قلت:

- مش مرتاح له يا صالح!

كتم ضحكته التى خرجت رغمًا عنه وقال:

- ولا أبوك الله يرحمه كان بيطيقه.

ابتسمت ودعوت لأبى بالرحمة وتأملت أرضية المكان التى بدت كأنها صنعت قبل اختراع النظافة فبقت على حالها حتى الآن، ولاحظ صالح التقزز الذى غلف ملامحى فقال:

- كله هيتمسح دلوقت والمحل هيلمع يا عم أحمد.

أومأت له والتفتت لأجد ثلاثة من العمال يتأملونى كأننى وافد أجبنى جاء لزيارة المكان فنهرهم نصر الذى هاجت أعصابه وصرخ:

- ما تشوف شغلك يا بهيم إنت وهو.. هنقف نتفرج على بعض.

تكهربت الأجواء ودس كل عامل وجهه فى ما أمامه لينهى مهمته قبل أن يبدأ غيرها وصحبنى صالح إلى الداخل لإحضار أدوات النظافة لتنظيف أرضية المحل وقال:

- عاوزك تركز هنا على حاجة واحدة.. مصلحتك وبس!

بعدم فهم قلت:

- يعنى أعمل إيه؟

بجدية قال:

- تخلى أهم حاجة عندك الفلوس.. تتعلم الشغلانة بسرعة عشان يزود يوميتك وتعرف تجمد لك قرشين!

باندفاع قلت:

- مش كل حاجة الفلوس!

قلتها فتبدلت ملامحه ولأول مرة تتبدل لهجته معى عندما سب الدنيا وما فيها وقال:

- سيبك من كلام الكتب بتاعك ده.. الفلوس هى اللى هتعملك قيمة، أبوك مات عشان اترمى فى مستشفى كحيانة مفيهاش علاج، إنت نفسك جاى تشتغل هنا وسايب علامك عشان الفلوس، بلاش خيابة.

قالها وأطال النظر إلى وجهى الذى انكمش وارتعشت عندما ذكرنى بأيام مرض أبى فاقترب وربت على كتفى وقال:

- يابنى أنا بكلمك لمصلحتك والله، ما تزعلش منى.

باقتضاب قلت:

- مش زعلان.

بحسرة قال:

- وبعدين مش إنت لوحدك اللى متعلم يعنى، ما أنا كمان معايا ليسانس حقوق، بس محدش يعرف.

قالها وضحك فضحكت قبل أن يكمل:

- هروح أجيب كوبايتين شاى ليا وليك.. بس متاخدش عليها!

ألقى ما بيده فى أحد الأركان وذهب ليأتى بالشاى فاقترب منى اثنان بالكاد وصلا للتو إلى سن البلوغ،

أحدهم تزينت يداه بالجروح التى تداخلت مع أظافره التى غزاها السواد فصنعت لوحة امتزجت فيها القذارة مع الشقاء، والآخر تدلت من بين شفتيه سيجارة رديئة وضعها بحرفية حشاش متمرس، شب على قدمه واقترب من وجهى وقال:

- منور أهندزة!

بعدائية مفرطة قلت:

- أهلًا.

التصق به زميله الذى قال:

- مالك ياعم قرفان مننا ليه، م إحنا ولاد ناس زيك!

لم يكد لسانى يلفظ الكلمة التى وقفت فى حلقى عندما دخل نصر فجأة ولطم وجه الطفلين وصرخ فى وجوهنا:

- هو احنا هنشتغل ولاهنقلبها مسطبة ياخويا إنت وهو!

على عكس ما توقعت، صدمنى رد فعل الطفلين اللذان تعالت ضحكاتهم ومضى كل منهم إلى ما كان يفعل قبل أن يأتى صالح ومعه كوبان من الشاى، وجدنى فى مواجهة نصر فقال:

- فيه إيه يا عم نصر!

شخر نصر وقال:

- هو البيه هييجى يبوظ لى العمال وهنفتحها محكى!

بتوسل قال صالح:

- ياعم نصر ده أول يوم له.

بينهم وقفت كالصنم الأصم بعدما قال نصر:

- وهو جابك محامى له يا روح أمك!

لم يرد صالح بعدما أنهى الموقف رجل دخل يكتئ على عصا فقد إحدى عينيه جاء ليطلب شيئًا ما لوجه الله فسبه نصر وفى خفة كمش ورقة من على الأرض وغمسها

بالنار المشتعلة تحت المقلاة وقربها من وجه الرجل الذى هرول إلى الخارج بقدمه المعلولة فتضاحك نصر وقال:

- هو إحنا فتحناها شؤون اجتماعية ياولاد الوسخة!

اندفعت وقلت لنصر:

- حرام يا عم نصر، ده غلبان!

افتعل الحكمة وقال:

- اللى يصعب عليك يفقرك يا خويا!

قالها فازداد احتقارى له وتكومت علامات الكره على وجهى فجذبنى صالح بلا كلام وكأنه يمنع عنى أذى أجهله وبدأنا فى تنظيف أرضية المحل سويًا وما أن انتهينا حتى بدأنا فى مهمة جديدة وباقى العمال فى أعمالهم مشغولين تحت إشراف نصر الذى جلس يمسح الكل بنظرات خبيثة بحثًا عن أى خطأ يصدر عن أحدهم عمدًا أو دون عمد.

طل الصباح برأسه فغمر المطعم بنور السماء الطيب الذى شعرت أنه لا يتناسب مع طبيعة المكان المقبض لقلبى، وجاء معه رجل دخل المحل فجأة كأنه يتربص بأحدهم فغمزنى فتحى وقال بصوت خافت:

- الحاج فريد.

* * *

الحاج فريد الطحان..

رجل خمسينى، قوى البنية، هذبت لحيته المصبوغة بالأسود وتزينت أصابعه بخواتم فضية تحمل فصوص ثمينة، ورث هذا المطعم الذى أسسه جده بعدما ورثه أبوه الذى تركه له من بعده بصفته ابنه الوحيد ليصبح من ذوى الأملاك.

تابعته بعينى عندما اقترب من نصر بلا كلام فأعطاه كيس بلاستيكى عبأ بداخله النقود التى باع بها منذ

طلوع الفجر فدسه فى جيبه ودخل إلى الغرفة الملحقة بالمطعم والتى يتم فيها إعداد المأكولات وغاب لدقائق بعدما تبعه نصر فبدأ الغمز واللمز بين العمال والذى بدأه أحدهم بصوت خافت ساخر:

- داخل يديله التقرير.

من بين كلامهم فهمت ما يدور بالداخل وبعد دقائق خرج الحاج فريد الذى تجاهلنى وكأنه لم يرانى و بدأ برش الملح فى أركان وجوانب المحل وفى ذيله نصر الذى حمل المبخرة وعلى شفتيه ابتسامة صفراء وهو يقول كالدراويش "صل على حضرة النبى ".

بصوت خافت قال أحد العمال:

- أموت وأعرف بيرش الملح ده كل يوم ليه؟

ابتسم الآخر وقال بصوت مماثل:

- عشان الحسد ياض.. يعنى هيكون عشان الأرض تطرح قمح يابن العبيط!

رغمًا عنى ضحكت فالتفت لى الحاج فريد ونظر لى مطولًا وقال لنصر بحدة:

- مين ده يا نصر؟

بخفة اقترب نصر وجذبنى من ذراعى برفق وكأن قلبه امتلأ بحنان الأم وقدمنى للحاج فريد:

- ده أحمد إبن حامد الله يرحمه، جبته ياكل عيش معانا يا حاج.

نفض الحاج فريد يديه من أثر الملح الذى علق بين الخواتم وأصابعه وتفحصنى لدقيقة كأننى جندى يجرى كشف هيئة فى إدارة التجنيد ثم تنحنح وقال لنصر:

- اعتمده عندك يا نصر.

قالها والتفت لى:

- الله يرحم أبوك، كان راجل جدع، مش زى ناس!

ابتسمت وفهمت أنه يقصد التقليل من شأن نصر الذى التصق به فى تذلل وما كان ينقصه إلا أن يجثو على ركبتيه ويلعق حذاؤه طمعًا فى رضاه.

عاد الصمت من جديد وقد أصبحت فى هذه اللحظة جندى معتمد فى كتيبة مطعم الحاج " فريد الطحان ".

* * *

أنهى الحاج فريد عملية جنى الأوراق المالية التى باع بها نصر وهى مهمته التى عرفت أنها الشىء الوحيد الذى يفعله فى هذا المكان الذى تولى إدارته بالكامل نصر عصفورة فأصبح هو المدير الحقيقى لهذا الملكوت.

عرفت من صالح أن الحاج فريد يأتى مرتان صباحًا وظهرًا لاستلام النقود وأما عن كل ما يخص المطعم فهو من مهام نصر الذى اقترب من أحد الصبية وصرخ فى وجهه:

- هتفضل تغسل الطماطم كتير يا روح أمك، ما تخلص ياض.

باستسلام قال الصبى:

- أخر غسلة وهخلص يا عم نصر.

بفجور قال:

- ياض إخلص يااااااااض، شقلب واقلب، الناس معدتها تهضم الزلط!

قالها وضحك فبرزت أسنانه القبيحة وصفع الصبى على قفاه وقال:

- على قد فلوسهم يا حمار، هو أنا هفضل أفهمك كتير!

بآلية رفع الصبى الوعاء الذى امتلأ بثمرات الطماطم التى لا تزال تحمل طينها لتلتحق بسباق التقطيع داخل المطبخ حتى لا تتأخر عن مائدة الإفطار التى اقتربت باقتراب موعد مجىء الموظفين والعمال وأصحاب المصالح فى الثامنة صباحًا للحصول على وجبة تعينهم على افتتاح ومواصلة اليوم الذى بدأ.

حاولت تشتيت انتباهى عن هذا الهراء وأمسكت بجهاز الراديو وبحثت عن إذاعة القرآن الكريم علها تطرد الشياطين الساكنة فى المكان، فلربما يحترق نصر ويتفحم جسده!

حاولت مرارًا تثبيت صوت الإذاعة على آيات الله فأبت أن تقال وجاء الصوت متقطعًا تداخلت معه ذبذبات الرفض فعلق نصر هازئًا:

- هو الشيخ لسه ما صحاش ولا إيه!

تجاهلت ما قال ونجحت أخيرًا فى تثبيت صوت القرآن الذى جاء عاليًا فصرخ نصر فى وجهى:

- إقفل البتاع ده يا عم، هو إحنا قاعدين فى عزا!

* * *

انصرفت عن وجهه وبدأت فى العمل بجوار صالح الذى تجهم وجهه فى اعتراض مكبوت على ما يفعله نصر الذى تجرأ على كلام الله بالسخرية الجهولة ثم نادى بغلظة على أحد العمال:

- ناولنى يابنى إزازة مية عشان أخد العلاج.

أجاب العامل طلبه فأخرج من بين طيات ملابسه كيس ورق صغير به ما يقرب من عشر كبسولات وكأن

جسده مستنقع يضم أمراض الدنيا فبدا لى كخيال مآتة خاوٍ مهزوز يتلحف برداء البذاءة ليبدو قويًا.

تأملت نصر الذى ابتلع الماء حتى تجشأ وهو يلقى بالكبسولات فى فمه فأيقنت أن الظلم الذى ارتبط فى أذهاننا بكل صاحب نفوذ ومتجبر جعلنا ننسى أن الصفات البشرية لا تستأثرها طبقة معينة دون الأخرين.

هناك من يطحنهم الفقر والجوع والمرض، ولكنهم لا يتورعون عندما تأتيهم ربع فرصة لسحق غيرهم، وكأنهم يرسلون رسالة إلى العالم مفاداها " نحن نستحق ما نحن فيه... وأكثر".

اشتدت حرارة هذا اليوم بعدما غضبت الشمس وأرسلت لهيبها خالصًا فوق رؤوس الناس فاكفهرت الوجوه فى الشوارع التى ضجت بالناس الذين زحفوا يبدأون يومهم، ولم يفتهم المرور على القبلة اليومية التى ساقهم إليها الجوع فهطلت الوفود من كل صوب، طلبة وعمال وموظفين ومحتالين وعلماء وجهلاء، كل منهم جاء ليلبى

نداء المعدة التى استيقظوا على صراخها فجاءوا ليملأوها بما صنعنا.

تأملت هذا العبث الصاخب الذى أصبحت قطعة من مكوناته، فهؤلاء العابثين الثائرين الذين خلقو زحامًا لا ينفض حول موائد جمعت صنوف الطعام الذى يحمل لهم كل مسببات المرض والعلة والموت أحيانًا، يعرفون ولا يتفكرون، يشاهدون ولا يدركون، لا تتحرك عقولهم بقدر ما تتحرك صفوف أسنانهم التى انهمكت فى هرس وطحن ما قدم لهم.

امتد هذا العبث حتى انتصف النهار واقترب الطعام من النفاد مع انتهاء موعد وردية النهار فجاء الحاج فريد الذى دخل فجأة ليعطه نصر حصيلة اليوم من الأوراق المالية التى يعشقها وغادر المحل سريعًا بعدما أنهى مهمته.

استبقى نصر على بعض الفتات الذى خصصه لدفع أجور العمال بعدما نادى على الموجودين ووقفنا أمامه

فى صف كالذين يصطفون للحصول على صدقة فبدا لى أن العاملون فى هذا المكان مجموعة من البائسين اليائسين الذين فقدوا الأمل فى الحياة واجتمعوا هنا لانتظار الموت.

فى صف العمال وقف أمامى أحد الأطفال المغتربين الذى توسل إلى نصر وقال:

- والنبى يا عم نصر عاوزك تصفيلى حسابى عشان أمى فى البلد تعبانة وهتعمل عملية.

بغلظة قال نصر:

- لما زميلك يرجع من الأجازة إبقى إنزل.

بضعف رد الطفل:

- طب صفيلى حسابى وهبعته البلد مع إبن عمى.

بفجور قال:

- ما قولنا لما زميلك ييجى هبقى أصفيلك وتغور إنشالله ما ترجعش تانى!

قالها وألقى له بورقة مالية صغيرة من فئة العشرين جنيهًا كمصروف يومى فانصرف الطفل وتقدمت أنا من نصر الذى قال لى:

- إحنا بندفع مصروف كل يوم وبنصفى الحساب كل شهر.

بتحدى قلت:

- أنا اشتغلت اليومية يبقى أقبضها قبل ما أمشى!

بذكاء رد:

- ماهو لسه يوميتك ما إتحددتش، فهتاخد مصروف لحد ما تتعلم الصنعة ونبقى نشوف.

أيقنت أن الحوار مع هذا الخرتيت يسير فى طريق مسدود فاستسلمت وامتدت يدى لأخذ المصروف وغادرت لينادى صالح الذى وقف أمام المطعم:

- تعالى يا أحمد عاوزك.

اقتربت فقال:

- يابنى إحنا ما أكلناش حاجة طول النهار، تعالى العيال مجهزين أكل جوة فى المطبخ.

تذكرت أننى لم أدخل فى جوفى أى شىء من ساعات طويلة لكننى تمنعت فجذبنى صالح وقال:

- ياجدع تعالى عشان يبقى عيش وملح.

على استحياء دخلت فوجدت طاقم العمال الذين افترشو الأرض ووضعوا من صنوف الطعام ما لذ وطاب قبل أن يدخل نصر فجأة ويدس عينه فى الأطباق المرصوصة ويصرخ فيهم:

- عاملين بيض يا ولاد الكلب يا محاريم، ده البيضة بجنيييييييييه!

ببرود الذى اعتاد على هذا الموشح قال أحدهم:

- إتفضل معانا يا عم نصر.

بغباء قال:

- هو إنت بتعزم عليا من جيب أمك!

قالها وانصرف فتقلصت معدتى ورفضت الطعام الذى لوثه نصر بسموم نظراته فاقترب منى صالح وقال:

- إحنا متعودين منه على كده.

امتنعت عن الأكل وأمام إصرارى قام أحد الصبية وقال:

- عليا الطلاق ما هتمشى إلا لما تشرب الشاى.

ابتسمت له وقلت:

- ماشى يا شبح.

سره ما قلت وقال:

- بصراحة الصبح كنا فاكرينك عيل فرفور بس طلعت واد جدع.

ضحكت وضحك صالح فبدأ الطفل بالكلام:

- أنا إسمى عمر والواد ده إسمه متولى و....

* * *

عمر ومتولى..

عمر ومتولى أولاد الخالة، سقط عمر من رحم أمه بعد متولى بعام ونصف منذ خمسة عشر عام فاعتبره الأخ الأكبر، تشابهت بنيتهم الجسدية التى اتسمت بشدة النحولة، نتجت عن فقر دق عظامهم وأسرهم فكان لابد من تضحية!

لما اشتد عودهم ووقفا على أعتاب المراهقة غادرا حياة القرية وجاءوا إلى المدينة التى عاملتهم كزوجة الأب القاسية إلى أن وصلا إلى مطعم الطحان الذى اعتبروه مكانًا للعمل ومأوى بعدما وفر لهم الحاج فريد السكن فى مكان تخزين أجولة الفول والعدس ومعهم صالح.

يعانى عمر من أزمات رئوية تهاجمه بعنف وعلى غفلة، لا يستطع معها الحفاظ على وعيه، فأصبح من الطبيعى رؤية عمر فاقدًا للوعى بلا إنذار مسبق لا ينقذه منها إلا عناية الله وأولاد الحلال الذين ينقلونه إلى أقرب مستشفى خيرى لتلقى العلاج والعودة مرة أخرى إلى المطعم حيث الصخب والنكات التى لا تنقطع من على لسانه كما قال:

- ما أنا لو ما ضحكتش هموت يا عم أحمد، عشان نعرف نتعامل مع المرار ده.

قالها ووقف فجأة وبدأ يقلد حركات نصر وانقلب المشهد إلى كتلة من المسخرة فضحكنا حتى رفرفت قلوبنا قبل أن يقول:

- والله نصر ده راجل خانكة، أنا ما برضاش أضربه.

قاطعه متولى مازحًا:

- لا يا عم عمر، إنت الكبير.

التفت عمر ليتأكد من انصراف نصر وقال:

- ياعم ده بيخاف من مراته، وهو شبه الصرصار كدا تلاقيها بتضربه بالشبشب.

امتدت المبارزات بين عمر ومتولى للنيل من شرف وسيرة نصر وكأنهم يفرغون طاقة الكره المكبوتة فى دواخلهم له، ضحكنا حتى استلقينا على ظهورنا، واستأذنت للمغادرة بعد هذا اليوم الذى لن أنساه ما حييت وتأكدت لدى حقيقة هامة جدًا... أنا حقًا أحببت عمر ومتولى.

* * *

غادرت المطعم وكل خلايا جسدى تصرخ من الألم الذى طغى عليه صراخ عقلى بعد هذه الصدمات، فلم يستطع التعامل معاها ولا استيعابها حتى بعدما مر على وجودى فى هذا المكان من الأسابيع ستة وكأننى أصبحت ماكينة وقعت فى مصنع احتكارى.

نجح نصر فى إلحاقى بنادى الأذلاء بعدما قام بتسجيل إسمى ضمن الصبية الذين تكوم لهم مئات الجنيهات

على سبيل الأمانات الجبرية، فلم أحصل على أموالى كاملة ذات يوم وكأنه يتلذذ بكسر نفوس العاملين وتسوية رقابهم تحت كعب حذاء حقير مبطن بالمال.

لم يكتف نصر بهذا بل وأضاف المزيد من المرارة فى كل كلمة تخرج من بين شفتيه، حاولت تجاهلها أحيانًا ولم أستطع أحيانًا أخرى.

لم تحمل كلماته مذاق المرارة فقط وإنما تغلفت بانعدام الضمير الذى لم يسمع عنه شىء من قبل عندما دخلت إلى مخزن الخضروات واصطدمت عينى بأحد الأجولة التى نقر أطرافها فتتبعت ما رأيت ليفاجئنى عشرات الفئران الذين انتشرو على أرضية المكان قبل أن يتسللوا فى فزع إلى بالوعة الصرف الصحى المكشوفة دومًا، واكتشفت فى هذه اللحظة أنها أفسدت كل مخزون الباذنجان والطماطم فهرولت إلى نصر وأخبرته فنظر لى بتقزز وأخرج أحد أعواد الكبريت وحشره بين أسنانه لينظفها من مخلفات إفطاره وقال بصوت جهورى:

- ما تبقاش غشيييييييييم، حسن السوق ولا حسن البضاعة.

أمسكت بطنى وقلت:

- سوق إيه وزفت إيه، كده الناس يجيلها طاعون يا عم نصر!

أزعجته جراءتى معه وقال:

- ما تخافش على الناس يا حنين، المعدة بتتعامل.

بجرأة أكثر قلت:

- والله حرام عليكم!

بسخرية قال:

- كله بيتصرف وبينزل فى المجارى ياخويا!

اقترب صالح الذى قطع حوارنا وجذبنى من ذراعى فارتفعت ضحكات نصر الذى قال له:

- خير ما فعلت ياسى صالح، أصله عاوز يعملى فيها الشيخ ضمير.

قالها وضحك ودخل فى منحنى آخر عندما ضرب عمر على قفاه وقال له:

- وإنت ياض يا فلاح، مش عاوز تدينى شوية مواعظ!

بطبيعة عمر الذى حول الموقف إلى دعابة رد على نصر:

- ما بلاش إنت يا عم الحاج!

بصفعة أخرى رد نصر على عمر:

- نسيت ياض أول يوم ليك فى المطعم إنت والحمار قريبك!

بخفة دم قال عمر:

- ده إنت ذليت تيت أبونا!

قالها فانتفخ نصر فخرًا لاعتراف عمر وبدأ فى حكى ما فعله معهم كأنه قام بتقديم خدمة للبشرية

عندما استغل سذاجتهما وأمرهما بحك اسطوانات الغاز الحديدية الصدئة و..

- عاوزك تدعك الأنبوبة دى لحد ما تبقى مراية.

بسذاجة قال عمر:

- حاضر يا معلم.

بغباء قال نصر:

- لو ما شوفتش فيها وشك وهى بتلمع مش هشغلك ياض.

قالها وناول عمر قطعة خشنة من سلك الألومونيوم وأحضر كوب من الشاى وجلس يضحك على سذاجة الطفل الذى انهمك فى دعك اسطوانة الغاز كأنه فى اختبار لإتقان العمل بينما كلف الطفل الآخر بمهمة أخرى عندما أمره برص عشرات أجولة الفول الثقيلة فى المخزن.

حكى نصر ما فعله معهم وغاب فى غيبوبة من الضحك فقاطعته بصرامة:

- أنا أجازة بكرة يا عم نصر!

قلتها بعدما اقتربت من الانفجار فى وجهه الذى تمنيت تحويله إلى كيس مهلهل من القمامة.

قطع ضحكته وبدل ملامحه وقال:

- أجازة بمزاجك كدا؟!!... هو إنت شغال فى شركة أم السيد!

قلت له كذبًا:

- أمى تعبانة وهوديها للدكتور.

بعد تفكير قال:

- هعديهالك عشان خاطر الحاجة.

قالها ثم عاد إلى حالة الدعابة السخيفة التى يحاول فرضها علينا أحيانًا وقال:

- الله يرحمه أبوك، كان بيرفع القدرة زى الوحش.

بخفوت قلت:

- الله يرحمه.

بسخرية قال:

- أبوك كان فاكر نفسه عبد الحميد الجندى.

تدخل عمر الذى قال:

- مين عبد الحميد الجندى ده يا عم نصر؟

لطمه على قفاه وضحك وقال بعدما انتفخ صدره:

- ده بطل العالم فى رفع الأثقال ياض.

بسخرية قال عمر:

- أمال إنت بطل العالم فى إيه؟

قالها عمر فضحك كل العمال ليخرس نصر تمامًا قبل أن يقول لعمر:

- وحياة أمك لأعرفك أنا بطل فى إيه!

قالها وألقى بجسده فوق عمر الذى وضع يده على رأسه ليتفادى ضربات نصر الذى عاد إلى مكانه بعدما جاء الحاج فريد على غفلة وبلا كلام دخل إلى المطبخ وفى ذيله نصر ليملى عليه التقرير اليومى.

* * *

وكعادة كل طلوع شمس، اشتد زحام الناس فى المطعم للحصول على قطعة من المرض مدفوعة الثمن، فهذا مرض بنكهة الباذنجان وهذا بنكهة الطماطم أما هذا فمخلوط بالشطة والخل والملح الزائد!

انتهت المهزلة اليومية فى موعدها المحدد واجتمعت بعمر ومتولى وصالح على المقهى القريب لنسترح من شقاء اليوم ليبدأ عمر فقراته المضحكة المحببة إلى قلبى والتى غالبًا ما تنال من شرف نصر.

تجاوز عمر الإرهاق الذى احتل جسده الضئيل وقام

يقلد حركات نصر وسط ضحكاتنا قبل أن يقص علينا شيئًا ما وقال:

- أحكيلكم حكاية فاطمة.

ضحك صالح ومتولى بينما جلست بينهم لا أعرف من هى فاطمة التى ذكرها قبل أن يقص علينا ويقول..

* * *

فاطمة..

ثلاثينية مطلقة ولها من الأطفال ثلاثة، هجرهم والدهم الذى لم يعرف يومًا مشاعر الأبوة لتصبح فاطمة لهم أمًا وأبًا.

اعتادت منذ يوم طلاقها لبس العباءات السوداء، وكأن الأسود لها رداء للجسد والروح ولون الأيام بعدما

ألقى بها حظها الغابر فى هذا المستنقع الذى جاءت عليه وهى تجهل ما به عندما جاءت إلى نصر تطلب العمل فى المطبخ فرحب بها نصر بحميمية شديدة.

حدد لها نصر يومية مرتفعة وألحقها بالعمل فى المطبخ فكانت مهامها تنحصر فى تقشير وتقطيع الخضراوات وغسل الأوانى وتنظيف المكان.

وفى يوم استغل نصر هدوء المكان قبل طلوع الشمس وتسلل إلى المطبخ ليقف خلف فاطمة وبخفة حاول مداعبتها بيده قبل أن تلتفت وتصرخ فى وجهه ولم تنقطع يدها عن لطم وجهه الذى تحول إلى قطعة حمراء من الرعب بعدما تجمع العمال لتغادر فاطمة المكان بعدما بصقت فى وجهه وخلعت حذاءها وطالت به رأسه فى ضربات هيستيرية وهى تصرخ:

- فاكر كل الناس أوساخ زيك يا عرة الرجالة يا ناقص.

حكى عمر ما فعلته فاطمة وسط ضحكات متولى و صالح بينما أنا لم أبتسم قط بعدما دبت فى حلقى

رغبة شديدة فى الغثيان مما فعله هذا الخنزير تخيلت للحظات أن هذا ما كان سيحدث لأمى التى أرادت العمل بعد وفاة أبى!

اعتصر الألم أمعائى وأنا أتخيل كم ألف فاطمة تعمل وكم ألف نصر يعاملها كقطعة لحم زهيدة الثمن سهلة الاصطياد!

* * *

عدت إلى دنيا الأحياء مرة أخرى، تنفست حتى تشبعت رئتاى بالهواء النظيف وقررت مدّ أيام إجازتى إلى ثلاث أيام دون أن أرجع الأمر إلى نصر، وبانقضاء الأيام الثلاثة استيقظت فى موعدى فى منتصف الليل فشعرت بثقل فى أقدامى كأنها مكبلة فى الأرض، غير قادرة على السير فحاولت مرارًا حتى طاوعتنى مرغمة كأنها تسير بى إلى الموت!

وصلت إلى المطعم بعد انتهاء إجازتى ليستقبلنى نصر:

- هو إنت شغال فى تكية المرحوم ياخويا!

تجاهلته فأكمل:

- واخد 3 أيام من دماغك!

أمعنت فى تجاهله فأكمل:

- لو اتكررت هتاخد استمارة ستة وتقعد جنب الحجة!

بلا كلام اقتربت منه وفى نيتى أن أدب يدى فى بطنه فأخرج أحشاؤه بعدما حدثنى بهذه الطريقة، لكنى تراجعت عندما سمعت صوت صراخ يأتى من داخل المطعم فهرولت لأجد عمر الذى سقط فجأة وقد شحب وجهه وخرجت سوائل صفراء من فمه فصرخ نصر فى ذعر:

- إرموه بره أحسن يجيب لنا مصيبة!

قالها واقترب منه وحاول جر جسده الغائب عن الحياه خارج المطعم فمنعته بالقوة وحملته برفق أنا وصالح ومتولى قبل أن نتصل بعربة الإسعاف ليخترق أذنى صوت نصر الذى قال:

- محدش يقول فى المستشفى إنه شغال ف المطعم!

انشغلت بعمر الذى أخرج صوت أنين كأنه يفرغ روحه خارج جسده وصحبته فى عربة الإسعاف قبل أن نصل إلى المستشفى ليستقبلنا أطباء الامتياز الذين تجمعوا حول جسد الصغير فى جلسة علاجية تدريبية فغاص عقلى فى تأمل جسد هذا الطفل الذى هرب من الفقر ليسقط فى جوف الذل والإهانة، فلا هو له حق فى الحياة فى أعينهم ولا يحق له المرض، وإن فعل فليس له أن يطالب بعلاج، كل ما يمكن أن يفعلوه معه هو سحل جسده الضئيل بسواعدهم الغليظة الشديدة وإلقاؤه فى أقرب صندوق قمامة وإحضار شاب عفى عوضًا عنه لاستكمال العمل!

بداخلى تداعت مشاهد لا أعرف كيف تجمعت عندما تذكرت أبى فى سرير الرعاية المركزة وتخيلت مشهد فاطمة وهى تصرخ بعدما تحرش بها نصر وتذكرت

أول مرة رأيت فيها نصر فامتلأت عينى بدموع لا أعرف كيف توقفت عندما دب الوعى مرة أخرى فى جسد عمر، والتفت لى فى ذبول وقال:

- والنبى يا أحمد نفسى أشوف أبويا.

أفلتت دموعى وقلت:

- ياض هتبقى زى الفل وهترجع البلد وهتشوف أبوك.

انفطر من البكاء وقال:

- إحنا مالناش تمن يا أحمد، والله لو قمت ما أنا راجع للمطعم تانى.

ربت على كتفه وقلت:

- إضحك بقى ياض، هتقوم وهتبقى زى القرد.

بصعوبة رسم ابتسامة كانت قبل ذلك اليوم علامة أصلية قد صاحبت ملامحه، فقدها بالتدريج بعدما غاص المرض والألم فى جسده.

أمر الطبيب بحجزه فى المستشفى عدة أيام فودعته بعدما اطمأننت على حالته وغادرت المستشفى لأعود إلى المطعم وفى نفسى اعتملت كل كوامن الكره ضد نصر، فوددت لو سمعت خبر وفاته عند عودتى للمطعم، لكن القدر رفض تحقيق أمنيتى فعدت مع انتصاف النهار ليستقبلنى ببرود:

- هاااااااا.. مات؟

منعنى عن الرد الزحام الذى ملأ المطعم وكأن القيامة قد تحدد موعدها الآن وها نحن فى يوم الحشر العظيم، اندفعت لأقف بجوار صالح الذى هرسته عشرات الطلبات عندما وقف منفردًا لأننى غبت عنه بصحبه عمر فى المستشفى ففقد القدرة على مواصلة العمل لتتضاعف كثافة الزحام أمامه قبل أن تطاله يد أحد الواقفين الذى قذف فى وجهه بطبق بلاستيكى وصرخ:

- ما تمشينى يابن الوسخة، هو إحنا هنبات هنا!

قالها ففارت الدماء فى عروق صالح الذى لطمه على وجهه فحفرت أصابعه علامات أثارت الرجل الذى سب الدين لصالح وناوله عدة ضربات قبل أن يتدخل نصر الذى صرخ فى وجه صالح:

- إنت هتطفش لى الزباين يا صعيدى!

قالها وهدأ من روع الزبون عندما قال:

- حقك علينا يا بركة، تؤمر بإيه؟

سب الرجل صالح للمرة العاشرة بينما نصر يجهز له ما طلب والتفت إلى صالح وقال:

- الزبون عندى أهم من الصنايعى ياروح أمك، فاهم؟

تحول صالح إلى كائن آخر لا أعرفه عندما سمع سب أمه علنًا وحاول الانقضاض على نصر الذى هرول إلى الخارج ليأتى بأحد المخبرين الجالسين على المقهى الملاصق للمطعم واتهم صالح بسرقة إيراد المحل وسط ذهول صالح الذى صرخ:

- والله العظيم ما سرقت حاجة.

بفجور احتمى نصر خلف المخبر وقال:

- هجم على درج الفلوس وسرق الفلوس وعندى شهود.

جن جنون صالح وحاول الفتك بنصر فكبله المخبر وأشبع رأسه ضربًا شاركه فيه نصر قبل أن يسقط ليصطحبه المخبر إلى قسم الشرطة.

ما بين الغضب والجنون شل عقلى فاشتبكت مع نصر الذى طرحته أرضًا، حاول مقاومتى فلم يستطع بعدما تناوبت على وجهه باللكمات التى امتلأت بالغل بعدما تردد على ذاكرتى مشهد تحرشه بفاطمة وسحل جسد عمر الذى غاب عن الوعى وظلم صالح وسخريته من أبى وذل العاملين بهذا الوكر.

لم يفلح الجيران الذين تجمهروا فى تخليصه من يدى فاكتفت الجموع بالمشاهدة بعدما تحولت ملامحه

إلى قطع مغموسة بدماء نجسة غير صالحة للحياة فتركته على الأرض يلهث كأنه يتشبث بآخر أنفاسه فى الحياة.

هرولت إلى المطبخ لأجد صفيحة الماء التى وقفت على حامل النار تفور وتغلى فتفاعل الغليان مع عقلى الذى غاب وبحثت عن أكبر سكين حاد كالنار لم يسبق لنا العمل به، لأجربه لأول مرة فى تشريح وجه نصر الذى صرخ فى ذهول عندما رأى نصل السكين كالبهيمة الهائجة فى لحظات ذبحها.

ذهل الحاضرون عندما تلون نصل السكين بدم نصر الذى تدحرج على أرضية المطعم القذرة وأنا من خلفه أفرغ ما اختزنه قلبى من سواد حتى وصل مؤشر الغليان فى تلافيف مخى إلى ألف درجة قمت بتمزيق وجهه وأنفه وأذنه فانفجرت من وجهه كتل من الدماء اللزجة التى تلطخت بها الأرض السوداء فجثوت على جسده الممزق وغمست يدى فى دمائه بعدما انفلت عقلى و...

* * *

انتهت مهمتى وسقطت بجانب جسد نصر المهلهل حتى جاءت الشرطة وباستسلام سرت بين بعض مرتدى البذل السوداء ذات النجوم اللامعة بعدما كبلوا يدى لأواجه تهمة الشروع فى قتل المدعو نصر عصفورة.

* * *

كنت فى رحابها ملكًا

استمرت المداولات لدقائق بينى وبين أولاد الخال والخالة واتفقت الآراء على تحديد وجهة المغامرة التى اقترحت أنا أن تكون اكتشاف عفاريت الخرابة المهجورة القريبة فلمعت العيون وحصلت فكرتى على موافقة بالإجماع وبدأنا التخطيط فى صمت.

وبما إنى أكبر المغامرين سنًا فقد تقدمتهم فى الغزوة التى قررنا إقامتها متسلحين بالعصى القصيرة وقطع الطوب التى انتفخت بها جيوبنا الصغيرة لمواجهة جيوش العفاريت الساكنة فى الخرابة التى جف لسان أمى فى تحذيرنا من الاقتراب منها!

ضربت بكل التحذيرات عرض أضخم حائط وبثقة القائد قلت لجنودى:

- أنا هطلع أنط من على السور وأحدف لكم الحبل وتطلعوا ورايا.

قلتها للجيش المكون من ثلاثة جنود وتسلقت الحائط معتمدًا على البروز والأجزاء التى انفرطت بفعل الزمن حتى ارتقيت السور قبل أن أقفز بداخل الخرابة للبحث عن الحبل الذى اعتقدت أننى سأجده ملقى بالداخل ضمن مخلفات المكان لأقذف به لجنودى فلم أجد سوى الظلام وكتل من خيوط العنكبوت المرعبة وزوج من العيون اللامعة لشيءٍ ما تلون بلون الظلام فخيل إلى أنه زعيم جيوش العفاريت وقد تحفز لاستقبالى فلم أستطع الصمود أكثر من ثانية بعدما اقترب واقترب واقترب فتفككت مفاصلى وارتخت أعصابى وصرخت بما لا يليق بقائد معركة قبل أن أجرى بهيستريا فى المكان ومن خلفى هذا الكائن الذى أصر على الفتك بى مهما كلفه الأمر.

من بين لهاثى ناديت على جنودى فلم يصل إلى أذنى ما يدل على وجودهم قبل أن تأتى النجدة متمثلة فى هلاك سيحدث لى بعد قليل عندما اقتحم أبى وخالى الخرابة والتقطونى كخرقة بالية مبللة غارقة فى الطين وخرجوا بى لأجد جنودى الذين قاموا بتسريب أسرار المعركة إلى القيادة العليا ذاهلين من هيئتى.

على كتف أبى حملت عندما خانتنى ساقى ورفضت المشى حتى وصل بى إلى منزل جدتى " سليمة " وسط شماتة جنودى الخونة الذين لحقونى بزفة اعتقدت معها أن فضيحتى وصلت إلى المنتهى واستقبلتنى أمى التى لطمت على صدرها فقاطعتها جدتى التى أصدرت فرمانًا ونظرت إلى أبى وقالت بعينها قبل لسانها:

- إياكم حد يضرب سالم!

بلا مقدمات أومأ الجميع فعادت الروح إلى جسدى بعدما أوشكت على الاختفاء خوفًا من عقاب والدى

واقتربت من جدتى التى أدخلتنى إلى الحمام حيث الطشت البلاستيكى الأحمر الواسع وخلعت عنى أشلاء ملابسى وأزالت آثار المعركة بالماء الدافئ والصابون بعدما قامت بدعك جسدى الصغير باللوفة الجافة الخشنة وهى تقول:

- خروفى الصغنن يا ناس.. محدش يقدر يكلمك يا سمسم وأنا هنا.

من بين فقاعات الصابون التى صنعتها لوثت جبينها بسيل من القبلات قبل أن تنهى حمومى وتلبسنى الزى الرسمى لديها وهو بيجامات خالى القديمة التى احتفظت بها للزمن ليأتى خروفها الصغير المفضل لديها عن باقى أحفادها ويرتديها.

أنهت مهمتها وخرجت بى ممسكًا بطرف جلبابها الأخضر إلى الصالة لنجد أبى وأمى وخالى وخالتى وأطفالهم فزدت من التصاقى بها وكأننى زائدة برزت فى طرف جلبابها فقالت بحزم:

- سالم هيبات عندى النهاردة.

تطاير قلبى من الفرحة التى اهتزت عندما لمحت نظرات أبى التى أعرفها لكن جدتى أكملت:

- هو كده كده أجازة من المدرسة... يبقى يقعد معايا كام يوم.

بلا نقاش وافق أبى وجلسنا جميعًا فى رحاب جدتى " سليمة " نستمع إلى الست " أم كلثوم " فى خشوع عندما بدأت حفلتها التى تحفظ موعد إذاعتها فى الراديو الخشبى الذى وقعت فى غرامه من أول أغنية طرقت أذنى خارجة من سماعته التى سكن بداخلها شيءٌ ما لم ينقطع عن الزن.

حاول خالى قطع الصمت وقبل أن ينطق بحرف قصت جدتى كلماته عندما قالت:

- لما الست تغنى محدش يتكلم.. مفهوم يا منال!

دائمًا ما طرق ذهنى سؤال عجيب جدًا... لماذا يطلقون على خالى سامى اسم منال!

لطالما تعجبت من حدة جدتى مع الجميع، فقد كانت معهم حادة كالسيف وكانت معى لينة كقطع الملبن الذى كانت تعطنى إياه فى زيارتنا لها فى الجمعة المقدسة التى يتجمع فيها كل أفراد العائلة فى منزلها كبارًا وصغارًا.

انتهى اليوم وغادر الجميع بأطفالهم وصخبهم ومعهم أبى وأمى وبقيت أنا بصحبة جدتى، فلما انتهت حفلة الست فى الراديو سحبتنى إلى غرفتها وحملتنى إلى سريرها النحاسى العالى ونامت بجوارى فقلت لها:

- شعرك حلو قوى يا جدتى.

اعتلى وجهها فرح طفولى داعب تجاعيدها الحنونة وقالت لى:

- عارف يا خروفى... زمان وأنا صغيرة كانت ضفيرتى بتوصل لكعوب رجلى.

قالتها ودفنت رأسى فى صدرها العامر بسلسلة ذهبية لا تخلعها مطلقًا حتى عند النوم يتدلى منها قلب بداخله صورة لشخصٍ ما فتأملته وقلت لها:

- مين ده يا جدتى؟

باستكانة قالت:

- ده خالك فوزى... البكرى بتاعى.

بجهل قلت:

- وهو فين دلوقت؟

من وسط دموع انزلقت رغمًا عنها أجابت:

- عند ربنا يا سالم... استشهد فى الحرب.

لم أعى ما قالته بشكل كامل ولكننى لم أعرف سبب سيلان الدموع من عينى وكأننى أشاركها حزنها الذى لا أفهمه فمسحت دموعى ودموعها وقالت بحنان:

- إيه رأيك بقى إنك هتقعد معايا أسبوع مش يوم بس.

أخبرتنى جدتى بهذا الأمر فلم يستقر قلبى فى موضعه من فرط السعادة لأننى أعرف تمامًا أننى بصحبة

جدتى سليمة سأظل خارجًا عن كل المفروضات والقواعد الصارمة ونمت ليأتى صباح اليوم التالى حاملًا روائح تداخلت فصنعت مزيج من البهجة، فما أجمل رائحة الجبن الأبيض القديم المعتق الذى تصنعه جدتى من الحليب الجاموسى الخالص ورائحة الخبز الساخن الذى تصاعدت منه الأبخرة الطازجة لتحتل خياشيمى.

على المنضدة تناولت إفطارى بيديها ما بين الجبن والعسل والبيض والزيتون الأخضر وبعض حبات العنب الأحمر الشهى الذى أعشقه حد العبادة وأحضرت لى شيئًا من محظورات أبى وقالت بدلال:

- خروفى الصغير بيحب الشاااااااااااااااى.

قفزت من مكانى عندما سمعت هذه الكلمة، فالشاى عند أبى من الممنوعات التى لا نقاش فيها، فهو مشروب الكبار فقط، ولكنى الآن عند الملكة التى تمتلك مفاتيح كل شىء فتعلقت فى جلبابها حتى أحضرت لى كوب

ملأت نصفه بالشاى الدافئ المحلى بالعسل كعادتها فالتقطته بخفة وجلست أرتشف منه ببطء حتى لا ينفد.

تركتنى جدتى فى خلوتى مع كوب الشاى وغابت فى الداخل قبل أن تنادينى من غرفة الطهو:

- تعالى يا خروفى.. إنزل لعمك جرجس إشتريلى بنص جنيه جاز عشان الوابور.

فى لمح البصر أخذت الوعاء البلاستيكى وذهبت إلى عم جرجس لأحضر الجاز وعدت لأجد جدتى تجلس كالملكة المتوجة وبصحبتها سيدة أعرف أنها جارة لها اسمها " أم صليب " وقد جلست أمامها وأمسكت طلاء الأظافر الأحمر وبدأت فى تلوين أظافر جدتى قبل أن تتبادل جدتى الدور وتقوم بتلوين أظافر صديقتها.

جلست بجانبها وسمعت هذا الحوار الذى دار بينهم ولم أفهم منه شىء:

- الواد إبن بنتى نازل زى فلقة القمر يا سليمة.

قالت جدتى بهمس:

- يا ولية ما تقوليش كده لا حد يحسده.

ردت أم صليب:

- حسد إيه يا سليمة.. كله بقدر!

قالت جدتى:

- الحسد موجود يا أختى والله... طب هقولك حاجة... الواد سامى إبنى أول ما إتولد الداية قالت لى ما تقوليش إنه ولد!

ضحكت أم صليب وقالت:

- أمال قولتوا إيه.. وزة؟

شاركتها جدتى الضحك وقالت:

- لبسنا الواد لبس بنت وقولنا للناس إنه بنت وسميناها منال.. وفضلنا ننادى الواد بإسم منال ونلبسه لبس البنات لحد ما دخل المدرسة اسم الله عليه.

قالتها وغابت فى نوبة ضحك هيستيرية وفهمت أنا سر كره خالى لإسم منال.

انتزعنى من شرودى صوت جدتى التى قالت:

- إنزل هات بربع جنيه نعناع بلدى من الراجل اللى بينادى ده يا خروفى.

وفى ثوانٍ ذهبت وعدت حاملًا بين يدى عشرة أحزمة من النعناع الذى فاحت رائحته فأخذته جدتى من بين يدى وأسقطته فى حوض مملوء بالماء وانتشلته واحدة تلو الأخرى، حاولت مداعبتها فشدت حزمة من الماء ورشت على جسدى من ماءها الذى حمل رائحة النعناع فامتلأت روحى بالبهجة التى قطعها صوت طفلى الذى دخل فجأة:

- بابا بابا بابا بابا.. بتعمل إيه؟

بلا رد أجبت على طفلى الذى ضبطنى جالسًا فى غرفتى مغمض العين فى محاولات فاشلة لمنع دموعى فقال بتلقائية:

- بابا هو أنا زعلتك؟

احتضنته وقلت:

- لأ يا روح بابا.. بس جدتى سليمة وحشتنى.

بعفوية قال:

- مين جدتى سليمة دى يا بابا؟

قلت له:

- جدتى يا آسر.. أم أمى.

سألنى آسر السؤال الذى صعقنى عندما قال:

- معاك لها صورة على الفون؟

لم أعرف كيف أخبره أن صورتها فى ذاكرتى مدعومة برائحة جلبابها وعطرها الفواح وروحها وصوت ضحكتها، وهو أمر تعجز عن تحقيقه أحدث كاميرات هذه الأيام.

* * *

سيرك

خرجت من بيتى تتقاذفنى الأفكار، أتأرجح بين النوم واليقظة كالسكارى، لم يرأف البرد القارس بحالى فهاجمنى من كل منفذ، حتى حذائى المهترئ أراه بعينى يسخر منى بعدما اتحد مع حبات التراب المختلط بماء المطر وجرى بقدمى رُغمًا عنى فأسقطنى فى بركة من الوحل!

اللعنة.. ما هذه المؤامرة!

حتى أذنى تصر على استفزازى بعدما رفضت كل الأصوات التى جاءت من داخلى ولم تعد تسمع إلا صوت ضحكات المارة المختلط بصراخ أبواق السيارات المنفرة.

لم تمر نصف دقيقة إلا وأنا أدقق النظر لأجد عشرات المارة حولى كأنهم يشاهدون مشهد فى السيرك القومى!

حقًا... نحن فى سيرك ولكلٍ منا دوره المرسوم بدقة الذى يقوم به بجدارة..

فهذه السيدة البدينة التى تصطحب هذه الفتاة رشيقة القوام تحمل بعض أكياس مكتوب عليها بألوان متداخلة إمعانًا فى تمثيل البهجة " مفروشات البيت السعيد "

من قال لهم أن هذه المفروشات هى بالضرورة للبيت السعيد؛ من أخبرهم بهذا؟

من المؤكد أنهم كاذبون!

هذه السيدة تغتصب حافظة نقود الزوج لتبتاع أطنان من الأوانى والملابس تنافس فى وزنها كمية الشحوم المخزنة فى مؤخرتها، وتعود إلى الزوج الذى اقترب من التحلل جوعًا فيهب صارخًا:

- جرا إيه ياولية،هو إحنا هنتاجر!

فترفع حاجباً وتخفض الآخر وتلوى شفتاها:

- مالك يا راجل، ده فرش عروسة، لازم نفرحها وتبقى كابسة كل بنات خالتها دى البت بقت فايرة وتستاهل الأكيل.

فيرد عليها فى سره:

- إلهى يكبس على نفسك عزرائيل يا بعيدة.

على مقربة من هذه الكتلة المتحركة يقف شاب حليق الرأس زائغ النظرات تقترب يده وتبتعد مرتعشة حتى استقرت فى مقصدها القريب، هذا الملمس الناعم اللين الذى لم يسعفه الحظ علي الإستمتاع به لحظات ليفيق على عدة صفعات متتالية من يد غليظة أغلب الظن أن بها عشرة أصابع، تناوبت عليه عندما شهقت الفتاة فبدل موضع يده ليحمى بها مؤخرة رأسه صارخًا:

- جرى ايه يا جدعان هو أنا يهودى، هى اللى شمال وغمزتلى!

لم تنقطع اليد الغليظة عن أداء مهمتها فى العقاب وكأن هذا هو الآثم الوحيد فى الكوكب ووجب قتله حيًا وصاحبها صوت اتحدت فيه الأنف مع الحلق:

- ما تروح تتجوز ولا تتهبب على عينك يا طور!

انصرف الناس عن ملاحقتى بالنظرات والضحكات وتناوبوا على هذا التافه يلقون بالنصائح في وجهه، فأرقنى كثيرًا من يؤمن بأن الزواج مجرد عقد يسمح بتفريغ الشهوة بمباركة الأهل وضمان لسلامة الـ " قفا " من صفعات يد غليظة قد تقابلك عندما تحاول اكتشاف تفاصيل جسد فتاة ما فى الزحام.

تداخلت الأصوات وبرزت من بينها كلمات تحمل نبرة وقورة ظاهريًا لأحدهم؛ يرتدى جلباب أبيض قصير تلطخ ببعض حبات الطين وقال للفتاة فى حدة:

- يا بنيتى.. إتقِ الله فى الشباب واحتشمى.

انخرست الألسنة عن الرد فأكمل فى أسى مفتعل:

- إن أكثر أهل النار من النساء، اللّٰهُمَّ جنبنا فتنة النساااااااء.

قالها فأمن على دعائه صاحب اليد الغليظة والمتحرش والمارة جميعًا ومعهم السيدة البدينة!

ضيقت عينى وحاولت التركيز ففشلت، فقط رأيت نقاطًا سوداء وبعض خيالات، حاولت النهوض فلم تطعنى قدمى؛ استسلمت للسقوط مرة أخرى وتركت الطين يسكننى.

* * *

شرف عاهرة

أأقل لك سرًا؟؟!..

فى جوفى تسكن عشرات الحكايا التى لو تحررت وانسكبت على الورق فسيغرق عشرات المختبئين فى أثواب الفضيلة!

التهب حلقى بعدما أدمن جرعات العسل المسموم من أفواه تعددت بعدد الليالى التى انفرطت من حياتى بعد أول حيض افتتحت به أنوثتى فصرت قطعة الحلوى السرية التى يلوكون بها فى الغرف الخاصة التى يتجردون فيها من كل ألقابهم وهيبتهم وشواربهم التى تهتز لها أبدان!

نعم.. كما تخيلت تمامًا يا عزيزى... أنا العاهرة... أنا ذات الجسد الأبيض اللين الممتلئ بالمنحنيات الشهية...

أنا من أغويته بنظراتى فهوى فى قاعى، جذبته برفق فما رأى غير نهدى الذى وقف شامخًا على عتبة صدرى، تتوسطه لؤلؤتان مضيئتان انعكس بريقهما فى حدقة عينيه فركع تحت أقدامى طلبًا للرضا.

أنا أيضًا الصندوق الأسود الممتلئ حد القىء بالأسرار!!

كفنت جسدى بالملاءة البيضاء وخبأت أنفى خلف كفى حتى لا أفسد هواء الله النقى بأنفاسى النجسة بعدما انتهت جولاتهم التى تتابعت على جسدى فى هذه الليلة التى انتهت بمغادرتهم جميعًا زحفًا على أيديهم وأرجلهم كالثعابين التى انتهت للتو من بخ سمومها.

خرجت من الكفن الذى ألقيت جسدى بداخله واستسلمت للمياه التى انهمرت وتسللت بين ثنيات جلدى فكانت كماء العذاب المغلى الذى نزل فأثار طبقات الخطيئة المتراصة فوقى، وتداعت على عقلى ذكرى أول لقاء.

كنت قبل ذلك اليوم مضغة فى فم كل مشتهى، طالما يمتلك ثمن قضاء الليلة، حتى التقيته فى أحد الملاهى

الشهيرة التى تحتكر احتواء أصحاب الياقات البيضاء والساعات الذهبية اللامعة والألسنة الرنانة.

اقترب فاقتربت بعدما جذبتنى تلك الهالة الملتفة حوله، انحنى وطبع قبلة على يدى فابتسمت بعدما شعرت لأول مرة فى حياتى أننى إنسانة... آدمية... يحق لى الحياة بكرامة... تلك الكلمة التى سمعتهم يتحدثون عنها دون أن أتذوقها.

لم تمر تلك الليلة إلا وهو فى مضجعى يلهث، وحبات العرق تسيل من جبهته، تصحبها ابتسامة رضا انفرطت من بين شفتيه بعدما انتهى وامتلأت خزائن نشوته فأعاد تقبيل يدى وقال لى:

- تتجوزينى؟

لم أتخيل أننى سيقال لى هذه الكلمة ما حييت، فجعلته من هذه اللحظة فارسى الوحيد، وفى الليلة التالية كنت زوجته على ورقة كتبها شخصٌ ما!

صرت منذ هذه اللحظة خاصته التى قام بتخزينها داخل مكعب خرسانى محكم الغلق، وقد تحدد دورى الوحيد فى حياته التى سارت كما هى دون تغيير، غير أنه اقتطع لنفسه سويعات قليلة أسبوعيًا تفنن فى اختلاسها من زوجته ابنة الوزير الصارم لينهل من منبعى ويغادر فأصبحت بلا أدنى مبالغة عاهرته المملوكة!

لم يمر على زواجنا شهرًا ينقص بثلاثة أيام إلا وحدث ما لم أتخيله فى حياتى الماضية التى عثت فيها فسادًا وعهرًا!!

على دخان المخدر الملفوف فى رقائق ورقية انقضت تلك الليلة التى جاءنى فيها بصحبة ثلاث جثث من ذوى الياقات البيضاء والألسنة المشهورة وبدأت الليلة بمقامرة من نوع خاص.

جلست وحيدة أراقب مجونه وجنونه وهو يعلن لهم:

- اللى هيكسب النهاردة هخليه يدوق مراتى شريفة!

التفتت الأعناق نحوى واخترقتنى النظرات وتفحصت بعناية كنوزى التى كشفها زوجى لأعينهم وقال بتلذذ:

- أظن تستاهل... زى ما حكيت لكم عنها!

تكاثرت الأسئلة فى عقلى الذى اقترب من الذوبان فاختليت به للحظات قبل أن تنحدر دمعات حفرت أخاديد الحسرة على ملامحى التى تحولت إلى كتلة جنائزية صماء قبض عليها بيديه في قسوة وقال بخفوت:

- هو ده جديد عليكى يا روح أمك!

من بين بكائى المكتوم قلت:

- بس أنا بقيت ليك لوحدك!

بغلظة قال:

- بس أنا كيفى كده... مزاجى كده... لعبة وعجبانى!

بضعف قلت:

- مش هقدر

قلتها فتحولت ملامحه البشرية إلى كائن شيطانى لا

أعرفه ولطمنى بعدما كبش خصلات شعرى النائمة على كتفى وقال:

- لو البهوات اشتكوا منك هرميكى فى الشارع يا بنت الـ..... بس هتترمى مقتولة!

قالها وعاد للبهوات وتوسطهم وقال بلهجة استعراضية:

- النهاردة هنلعب لعبة لذيذة... هتقسم الجايزة عليكم.. عاوزين نتبسط كلنا.

قالها وقدمنى إليهم، واستعرض مفاتنى بيديه التى تزينت بخاتم ذهبى فاستسلمت عندما اقترب منى أضخمهم ولعق وجهى فتعالت ضحكاتهم واقتربت أنا من الغثيان.

كانت المباراة حامية، قاسية، مؤلمة، مهينة، استمرت لساعات انفرد فيها زوجى بدور المتفرج قبل أن يقطع عليهم حماستهم عندما قال:

- هاف فن يا جماعة... هطير أنا عشان عندى هوا كمان ساعة!

وكأنه يحدث ثلاثة أموات وجدوا الحياة فى مضجعى، لم يرد عليه أحد فانصرف يدندن لحن أغنية مقدمة برنامجه الشهير!

ارتديت ملابسى بعدما جففت جسدى بمنشفة خالية من الشرف وفتحت التلفاز لأجد زوجى الإعلامى المحترم بإطلالته البهية وابتسامته الآسرة يقدم برنامجه الشهير "الليلة مع شريف الطاهر"

* * *

لقاء مع شيطانى

مر على وجودى من الوقت ما لم يستوعب عقلى حسابه فى هذه الغرفة الحقيرة التى اخترتها لتكن لى ما أستحق من سكن بعدما توصلت إلى حقيقتى الكبرى التى رددتها فدوى صداها فى أعماقى " أنا حيوان ".

نعم... تلك هى حقيقتى التى أعترف بها لنفسى، أنا خنزير أخطأ القدر فى تكوينه فصرت أشبه بالكائنات البشرية التى عزلت نفسى عنهم وكبلت أطرافى بأصفاد حديدية موصولة بحبل غليظ ثبتت طرفه فى حائط هذه الغرفة التى تدلى من سقفها مصباح واكتست أرضها بفضلات حيوانية فاحت رائحتها النفاذة وصادقت جهازى التنفسى الذى اتفق مع باقى أعضاء جسدى على انتظار النهاية... هنا...

لم أعرف كيف تسلل هذه التيار الساخن الذى اقترب من جسدى فشعرت أن شخص ما يشاركنى الفراغ الذى أحطت به نفسى فحركت عنقى بحركة آلية خالية من الروح فلم أر سوى خيالات عشوائية انعكست من المصباح وتراقصت على الحائط المقابل لتشكل هيكل غير ملموس

تحرك تجاهى واقترب من أذنى واخترقها وقال بصوتٍ شعرت أنه جاء من أعماقى:

- هل لازلت تعتقد أنك خنزير... أنت لم ترق إلى هذه المرتبة بعد!

بلا مبالاة قلت:

- من أنت؟

أثقل أعماقى وقال بغرور:

- أنا قائد سفينتك ومزودها بالوقود... أنا جذر نبتتك والساق والأوراق... أنا داخلك وحولك... أنا شيطانك.

قالها وتوغل فى أعماقى، افترش خلايا جسدى التى اقتربت من الغليان فارتعد جسدى عندما اهتز المصباح هزة عنيفة سرعان ما خفتت وتراقصت على إثرها خيالات غير ملموسة رسمت هيئة أشخاص أعرفهم جيدًا صوبوا نظرات ملتهبة إلى جسدى المكبل الذى اهتز هزات غير منتظمة عندما جاءنى صوت الساكن فى أعماقى:

- هل نسيت هؤلاء!

قالها فلم أرد بعدما اقترب الخيال الذى رسم هيئة أبى والتحم بالخيال الذى رسم هيئة أمى وأخرج من جيبه كيس أسود امتلأ بديدان صغيرة ونثرها عند قدمى وعينه تغرورق بدموع أتذكر جيدًا أننى رأيتها يوم جاءنى أبى بصحبة أمى طلبًا لمن يساعدهم على المعيشة بعدما أصيب أمى بأمراض الدنيا المزمنة فلطمته ونهرت أمى التى فقدت صوتها بعدما ركلتها بقدمى وقلت لهم:

- هل نسيتم من أنا... إياكم أن أرى طرف أمثالكم هنا يا حيوانات!

زحفت الديدان وتسلقت ساقى وجذعى حتى وصلت إلى صدرى وبدأت فى تفتيت جلد قدمى اليمنى التى ركلت بها جسد أمى ومن خلفها أبى الذى أخرج كيسًا آخر خرجت منه عشرات الخنافس السوداء التى نافست الديدان فى احتلال جسدى لتحسم المعركة بعدما انتهت الديدان من تفتيت الجلد فانفردت الخنافس الصغيرة بالعظام التى امتلأت بالثقوب فنخرتها حتى صارت قدمى كقطعة الخشب التى جاء السوس فحل أوصالها.

كالجسد الذى فارقته الروح كنت أنا فلم أتأثر ولم يهتز فى جسدى شعرة عندما جاءنى خبر وفاة والدى متأثرًا بأزمة قلبية وإصابة أمى بانهيار عصبى بعدما ألقيت بهم مطرودين مهانين أمام عشيقتى التى أسكنتها

معى فى مسكنى الخاص الذى اتخذته بعدما ذاع صيتى فى بلدتى كأشهر محامٍ لا تمر أى منازعة قضائية من بين يدى إلا والبراءة مصيرها مهما كان الثمن!

تلذذت الخنافس بعظامى التى انفرطت فتسللت إلى داخلها وازداد دبيبها الذى حفز الساكن بداخلى الذى ضحك وقال:

- كنت لى نعم الخادم المطيع وها أنا أرد لك ما صنعت.

قالها فتحرك المصباح مرة أخرى ليرسم خلايات عشوائية أخرى جاءتنى هذه المرة بعشرات الأشخاص تقدم أحدهم وأخرج سلاح معدنى وغرس نصله فيما تبقى من بطنى التى تحولت إلى قطع مهلهلة فخرجت أمعائى التى تحولت إلى ثلاثة ثعابين سوداء التف أكبرهم حولهم ونشبت بينهم معركة كان فيها البقاء للأقوى الذى نهش لحمهم وأتى عليها حتى أخرها ثم التف حول نفسه وبدأ فى التهام ذيله فخرجت من بين أسنانى صرخة أخرسها شيطانى الذى قال بتلذذ:

- هل نسيت هؤلاء أيضًا؟!

ترصصت الهياكل أمامى واقترب أولهم ومزق لحم وجهى ومد يده وأخرج لسانى الذى كاد ينقطع فتذكرت يوم تسببت فى الحكم على هذا الرجل بالإعدام فى جريمة قتل أعلم أنه لم يرتكبها وها هو الآن يمزق لسانى الذى زين الكلمات التى ساقت به إلى مثواه الأخير.

وهذه السيدة التى اقتربت وشوهت بأظافرها هذه القطعة الجلدية الحقيرة المغرورة التى لهثت فى سبيل إرضاءها أميالًا ولوثت فى سبيل إشباع شهوتها أشرف الشريفات التى جئتها ذات يوم وأجبرتها على التنازل عن بعض من شرفها مقابل تبرئة زوجها الذى أعلم سلفًا أنه برىء.

قاومتنى فلم أجد بُدًّا من فرض سطوتى الذكورية عليها وطرحتها أرضًا بعدما تيقظت كل خصالى الحيوانية وصرت ألتهم لحمها الذى أغوانى فأتيت عليه حتى ارتويت.

اقتربت المرأة التى انتهت من تمزيق عضلات عضوى المرتخى وبصقت فى وجهى بتقزز وتراجعت ليحتل المواجهة هذا الذى تسببت فى سرقة أعضاؤه وهذا الآخر الذى تسببت فى سجنه مدى الحياة وهذه التى تسببت فى سلب أموال أطفالها اليتامى وهذا وهذا وهذا وهذا.....

علت الهمهمات وتداخلت الأصوات وتكاثرت الأيادى والمخالب التى أرادت فتفتة ما تبقى من جسدى المكبل بعدما اتفقوا جميعًا على البعد عن عينى لأرى بها كل صنوف العذاب الذى رد إلى بعدما احترفت إرضاعه لعباد الله.

ارتعشت إضاءة المصباح الصفراء التى تشبه الغل الذى عبأت به قلبى المسموم فاختفت كل الخيالات وانفرد بى شيطانى الذى قال فى غرور:

- لم تستطع الديدان التهام قلبك لشدة سواده، ولم تقدر على التهام لسانك لشدة مرارته، تلميذى النجيب أنت وعبدى المطيع.

قالها وأطاح بالمصباح الذى فقد بصره وانطفأ تمامًا فسكنت الغرفة لثوانٍ قبل أن تمتلئ بعشرات الخفافيش الذى التصقت بى ومعها شيطانى الذى حاوطنى وقال:

– لا... لا تعتقد أن هذه النهاية... إنها البداية إذن أيها الجهول.

قالها وعاد للغوص بداخلى المهترئ فسقطت فى دوامة من الهزات العنيفة التى لطمتنى وانخلعت أوصالى المتآكلة قبل أن يسترد المصباح بصره الأصفر الذى غمر الغرفة التى تبدلت وضمت زوجان من رجال التمريض الذين تأملوا جسدى الذى قامو بتوصيله ببعض الأسلاك والأجهزة لإمداده ببعض الموجات التى تساعد فى ضبط إشارات المخ.

يا للهول..

ما أصعب جلسات الكهرباء!

* * *

أنا لا أتجمل، لكنى أتبول

لا أدرى لماذا نهانى والدى فى الصغر عن ترديد الكلمات البذيئة ورد الإهانة بمثلها...!

تقافز هذا الخاطر فى ذهنى عندما وقفت منكس الرأس كالذى بالَ فى سرواله أمام المديرالتنفيذى للشركة التى أعمل بها بعد فاصل مطول من التشريح المنظم لكرامتى ورص أكوام من الاتهامات الموجهة لى بالتقصير والإهمال فى أمور خاصة بالعمل.

تسلمت خطاب الفصل من يد كنت قد أمسكت بها وسحبت صاحبها إلى مديرى فى العمل قبل

بضعة أشهر وسلمه بيدى خطاب تعيينه ليصبح زميلًا لى بعدما قضى وقت طويل تائه عن فرص العمل.

على الجانب الأيسر من شفتيه رأيت ابتسامة شامتة اكتملت وتشتتت عندما تعامدت نظراتى على حدقته لبعض ثوانٍ قبل أن يقول:

- الله يوفقك يا أستاذ وليد... إبقى خلينا نشوفك.

غادرت المكان بعدما امتنعت ذرات الهواء عن رئتى فدفعت بجسدى إلى الخارج وبصحبتى طاقة غضب وصلت إلى حد الغليان الذى صبغ ملامحى بالأحمر الحارق الذى اصطدم ببرودة الهواء فصرت كقطعة نار ألقيت على كتلة ثلج.

بلا هدف سارت قدمى حتى وصلت بى إلى سوق امتلأت بطنه بعشرات الباعة والمارة الذين اصطفوا لمشاهدة شيءٍ ما، أدركته عندما اقتربت فصم أذنى صراخ شاب كنت أحسبه يحاول التشبث بروحه التى قررت مغادرته حتى تبينت حقيقة الأمر عندما رأيته يفترش الأرض ومن فوقه شاب نحيل أسود الوجه كقلب الكافر، حشر فى أصابع يده اليمنى ثلاث خواتم لها فصوص بارزة وانهال بها على الشاب المطروح أرضًا

فمزق قميصه المهلهل ووجهه الشاحب الذى تحول إلى حارة مليئة بالثقوب والكسور ومياه الصرف الحمراء.

كالأموات كان المارة الذين شكلوا حلقة متفرجين صامتين حول هذه المعركة التى تفاعلت مع الغضب الساكن فى أعماقى وتحرر فجأة فاندفعت كالمنوم مغناطيسيًا، وألقيت بجسدى فى منتصف الحلقة وأشبعت الرأس السوداء بسيل من الضرب العشوائى بقوة وعدم وعى وكأننى فقدت عقلى فى هذه اللحظة التى انتهت بهروب هذا النحيف الأسود الذى ساح فى الزحام واختفى بعدما ارتفع عواءه.

انحنيت وساعدت الشاب على النهوض لأصطدم بتكوينه الجسدى الهزيل وذراعه الأيسر الذى خلا من العظام نتيجة إصابته بعيب خلقى فاقشعر جسدى عندما أمسكت به وصحبته إلى المقهى القريب بعدما انصرف المارة لينطق بصعوبة:

- استنى يا أستاذ... مش هينفع أبعد عن فرش العيش.

قالها وبخطوات متعرجة سار وسحب مقعد خشبى

متهالك قريب من بعض الطاولات الخشبية التى تراصت عليها أرغفة الخبز المختلط بالتراب وابتسم بعدما جفف الدماء التى التصقت بالجروح المرسومة على وجهه وقال:

- اتفضل يا أستاذ... والله ما هسيبك تمشى قبل ما تشرب شاى.

بهدوء قلت:

- ماشى يا عم.. نشرب شاى.

غاب الولد لدقائق وعاد حاملًا صينية عليها كوبان من الشاى وعلى وجهه ابتسامة تأملتها مع ملامحه البائسة وذراعه المعاق الذى جعلنى أشفق عليه، لمحنى أتمعن النظر إليه فقال:

- هو دراعى بايظ أه... بس زى الجن وأفوت فى الحديد.

قالها فضحكت وقلت:

- ماهو واضح يا عم... كنت أسد فى المعركة.

اقترب ووضع الصينية قبل أن يفاجئه بائع الفاكهة بصفعة مدوية على قفاه فقال له:

- تدوم يا معلم.

انفعلت وكدت أفتك بالرجل فاستوقفنى الشاب بلطف وقال:

- ده بيهزر معايا يا أستاذ... روق كدا.

أدهشتنى سماحته فعدت إلى الكرسى ولحقنى بعدما قال:

- إسمى سامح... بيقولولى موحا.

ابتسمت وقلت:

- وأنا اسمى وليد.

قذفنى بسؤال غريب:

- إنت حوشت عنى فى الخناقة ليه ياعم وليد؟

بتلقائية قلت:

- معرفش.

تأملنى وقال:

- أصل شكلك مش بتاع خناق.

انزلقت فى فخ التفكير بعدما سألت نفسى عن سبب إنقاذى لهذا الشاب، هل هى شحنة الغضب التى ملأتنى فأفرغتها فى جسد الشاب الأسود أم هو الشعور بالشفقة تجاه سامح، فأنا بالفعل لم يسبق لى الدخول فى أى معارك من أى نوع، حتى زميلى ومديرى اللذان اتفقا على إيذائى بكل جحود لم أفكر فى الانتقام منهم بالرغم من الغضب الكامن فى أعماقى!

اختطفنى من بين تساؤلاتى رجل يرتدى ملابس رياضية وتحجب النظارة الشمسية نظراته المغرورة التى فضحتها نبرته عندما قال لسامح:

- بخمسة جنيه عيش يا ابنى... وحطه فى شنطة العربية.

نفذ سامح الأمر بتلقائية وانصرف الرجل بسيارته وانتهيت أنا من كوب الشاى الذى أهدانى إياه سامح مكافأة لى على إنقاذه من الموت دهسًا تحت أقدام الشاب الأسود فسألته:

- الواد ده كان بيضربك ليه يا عم سامح بقى؟ إحكيلى.

اندهش من سؤالى وقال:

- إللى زيي يا أستاذ وليد ما تسألوش بيتضرب ليه.

قلت:

- إزاى يعنى... هو إنت مش بنى آدم زينا!

ابتسم وصدمنى:

- سيبك من الأستذة بتاعتك دى وإتعلم من موحا.

أومأت له وتابعت فكه الذى برزت منه بقايا الضروس التى انفرطت إما نتيجة إهماله لها أو من معارك سابقة كان فيها الضحية بكل تأكيد، قلت له:

- إشجينى يا أستاذ موحا.

هز يده المعاقة فتدحرجت يمينًا ويسارًا بليونة وقال:

- دى مخلية الناس شايفانى ناقص وبعدين شوف لبسى عامل إزاى وشكلى جربان.

حاولت مقاطعته فأسكتنى وقال:

- عندك الراجل صاحب العربية اللى إترسم عليا قوى ده... لو لبس زيي كده ونزل الشارع هياكل تسعين قفا ومش هيعرف يقول بِم.

قالها سامح فعصف بعقلى بعدما تخيلت جموع البشر مثلما قال أننا جميعًا لسنا إلا بعض الكراكيب الخاوية عديمة القيمة وتذكرت مديرى الذى سلم أذنه إلى زميلى المتسلق فقلت لسامح:

- كلامك حكم يا عم موحا.

ابتسم وقال بعدما أشار إلى هاتفى:

- ما تفرجنى ياعم على النت اللى بيقولوا عليه ده.

أعطيته الهاتف الذى طلت من شاشته صفحتى الخاصة فى موقع الفيس بوك فأسرته طبيعة عمل الهاتف باللمس وظل يحرك الشاشة بفرح طفولى كمن اكتشف لعبة جديدة حتى استوقفته صورة أحد المرشحين لمجلس الشعب فى أحد منشورات الأصدقاء فسألنى:

- صورة أبوك دى؟

ضحكت وقلت:

- ده مرشح لمجلس الشعب يا عم موحا... متعرفوش!

بتلقائية أجاب:

- يا عم ما بشغلش دماغى بحاجة مالهاش لازمة.

ضحكت حتى ارتويت واندمج هو فى اكتشاف الهاتف قبل أن يسألنى:

- وإنت بقى كنت رايح فين وجاى منين ساعة ما كنت أنا بتروق؟

قصصت عليه قصتى وما فعله معى زميلى المتسلق

الذى تقرب من المدير واتحدت بينهم المصالح الخاصة فكان لزامًا عليهم زحزحتى من المكان فقال بتلقائية:

- عشان تصدقنى لما أقولك... كلنا أوساخ بس حبة لابسين حلو وحبة لابسين وحش.

أدهشتنى فلسفة موحا واكتملت الدهشة تمامًا عندما اقتربت أسراب من الأطفال المتسولين فاستقبلهم بوداعة شديدة وقال لهم:

- اتأخرتوا ليه ياولاد الـــ ٪$#$٪!

تبادلو السباب البذىء واقتربوا منى بتوجس فنظرت لهم بتقزز رغمًا عنى قبل أن ينتشلنى سامح بحزم:

- دول عيال غلابة يا عم وليد... وأنضف من مديرك وزميلك ولاد الـــ ٪$$#.

قالها بعد انصرافهم عندما أعطاهم بعض من الخبز بلا مقابل وقال:

- مش قلتلك الأستذة بتاعتك مش هتنفعك... إسمع منى.

أومأت وقلت:

- حاضر يا معلم موحا.

استند بذراعه السليم على الحائط القريب وأخبرنى أنه لابد أن نقتسم بعض العيش والملح لتكتمل أواصر الأخوة فيما بيننا وبالفعل أصر على عزومتى على أرغفة الحواوشى التى تمثل قمة الإكرام بالنسبة له.

غاب لدقائق وعاد حاملًا لفافة بها أرغفة الخبز المحشو باللحم مجهول المصدر وصحبنى إلى حيث يسكن بعدما لملم بضاعته وخزنها فى أحد مداخل العمارات وصعدنا إلى الطابق الأخير وقال:

- إنسى بقى البشرية كلها ومد إيدك... بسم الله.

أدهشتنى عفويته التى تحولت إلى جنون تام عندما ابتلع نصف حبة دواء تشككت فيها وتأكدت شكوكى عندما انتهينا من الطعام ونهض سامح وخرج إلى الشرفة واعتلى السور فشهقت وصرخت فيه فقال بصوت عال:

- شايف كل الناس اللى تحت دول... تحت جزمتى.

قالها وفك زر البنطلون وتبول على كل الرؤوس بلا تمييز، رجالًا ونساء وعظماء وجهلاء، فشاركته الوقوف على السور فى انتشاء ونظرت إلى أسفل فرأيت كل الوجوه تحمل صورة زميلى ومديرى والرجل الذى ارتدى الزى الرياضى فتحررت من سروالى وأفرغت مثانتى على رؤوسهم جميعًا.

* * *

رسومى القاتلة

هل رأيت من قبل رجل يرسم شخوصًا على ورق بقلم رصاص ويقضى ليلته فى حديث مفتوح معهم... يبكى حتى تفرغ خزائن الدموع... ويضحك حتى تؤلمه عضلة قلبه فينتشى؛ وقبل طلوع الفجر يحرق الورقة ولا يطرق باب النوم قبل أن يتخلص من رمادها!

لا... لم أجن بعد!

هل ستفعل مثلهم وتتهمنى بالجنون!

فلتفعل... ولأفعل أنا ما أشاء أيضًا... فلا فرق عندى بين عقل وجنون بعدما تعودت أن أقضى منامى فى استضافة كل شخوصى الذين حرقتهم بيدى بعد أن عبأتهم بأسرارى، فهذا الذى رسمته ليلة أمس بأذنه الضخمة المثيرة للضحك - فقط ليحسن الاستماع لى - اقتحم منامى هذه الليلة بعدما قص أذنه وانساب منها خيط من الدماء السوداء بعدما أودعته أسرار لم يتحمل سماعها بالتأكيد!

وكما تعودت... تسللت من النوم هربًا إلى اليقظة؛ تاركًا مصنوعى الرصاصى المحروق سلفًا ينزف دمه الأسود ونهضت من فراشى فوجدت على يمينى أوراقى البيضاء التى تنتظر الليل بفارغ الصبر لتستضيف شخوصًا جددًا قبل أن تقضى نحبها بصحبتهم بعد ساعات.

تجاهلت أوراقى ومعها أمى التى كررت نداءها للمرة العاشرة - لا أعرف تحديدًا - فقلت بصوت اجتهدت أن يخرج:

- أيوة يا حاجة!

بأسى قالت:

- عاجبك حالك؟؟ هتفضل حابس نفسك؟

بيأس قلت:

- عشرة الورق أحسن من عشرة الناس.

بنفاد صبر قالت:

- الدنيا من غير ناس ما تنداس.

بعصبية قلت:

- مش عاوز حد... محدش يستحق يا أمى.

بصوت مختنق قالت:

- ما توجعش قلبى عليك.

قالتها... فانسحبت من أمامها بعدما نفذت سموم الألم برأسى وهرولت إلى غرفتى لأجد فى انتظارى هذا الذى رسمته قبل أيام وقصصت عليه كم ألم زارنى فى حياتى فانسكبت دمعاته على الورق حتى أغرقه فلم أستطع إحراقه وبقى حتى الأن بصحبتى فقلت له:

- إنت ليه باقى عليا؟!

بلا صوت أجاب:

- قاومت النار عشان حسيتك وعاوز أبقى جمبك.

بعصبية شوهت معالم الورقة وقلت:

- حتى دى غلط... محدش يستحق.

تخلصت إلى الأبد من الورقة التى تحولت بعد ثوانٍ إلى رماد لتبقى معى وحدتى وأوراقى

الفارغة ونداء أمى الذى عاد ليؤرق وحدتى فرددت بتأفف:

- خير يا حاجة!

-.....

انسحبت الكلمات من لسان أمى بعدما رأت السواد الذى طفح على وجهى بعدما أحرقت الورقة ولطخت وجهى برمادها ليصبح لونه كقلوب البشر فلطمتنى وصرخت:

- كفاية جنان بقى... أنا تعبت!

لملمت ما تبقى من روحى التى تناثرت وعدت إلى صومعتى فاقتحمت أمى عزلتى وصرخت فى وجهى:

- لازم تخرج... هطردك... هرميك برة غصب عنك!

كالإنسان الآلى سرت بعدما قادتنى أمى إلى خرانة ملابسى وكست نصفى العلوى بقميص أبيض ونصفى السفلى ببنطال أبيض كأنها تزفنى إلى الرفيق الأعلى وأخرجتنى رغمًا عنى فاستقبلتنى تيارات هواء باردة لفحت وجهى وما كدت أبصر المارين حتى لمحت على يمين الطريق كل من رسمتهم واقتسموا معى دموعى فتقدم أكبرهم وعاتبنى:

- إنت كمان مالكش أمان زيهم... تستحق اللى هيجرالك.

بجهل قلت:

- أستحق إيه؟

بجمود قال:

- هتشوف.

تجاهلته... فتجمعت كل ذرات التراب وكونت عاصفة لحظية قيدت بصرى وبرزت من العدم سيارة طائشة صدمتنى فسقطت ولم يرد إلى الوعى إلا على سرير أبيض بعدما سكن جسدى داخل قميص من الجبس لأجد حولى أمى ومعها أوراقى وقلمى الرصاص.

* * *

رجل فقد قلبه

فتشت داخلى بين الأركان النائية المهجورة عن هذا الموجوع الذى غادرنى بعد رحلة من الألم انتهت برسالة فيها قال:

" يا أيها العبد... سأغادر أرضك اليابسة، فاظلم وتجبر كيفما تشاء، وإن سألوك قل؛ غادرنى قلبى، فلا تلومونى ".

والحق يقال أنا لم أبحث عنه لرغبتى فى بقائه، بل فعلت لأمارس حريتى كاملة فى رد الظلم دون عائق!

فهذا الرجل الذى برزت عظامه فبدا كالهيكل الذى لم تغادره روحه بعد، جاءنى يسحب طفلة لم يكتمل نمو أسنانها تناديه " بابا "، اقترب تسبقه نظراته المتوسلة التى استقبلتها بشماتة وتضخمت بداخلى منابع القسوة فنهرته بغلظة:

- مش قلتلك ما تجيش هنا تانى!

انكمشت ملامح الرجل وقال:

- الضافر ما يطلعش من اللحم يا ابن أبويا.

سمعتها فبرزت أنيابى واصطبغت ملامحى بالأحمر الذى جعل الطفلة تلتصق بعظام أبيها بعدما هربت من عينها دمعة جاهدت فى كتمانها فصرخت فى وجهه:

- ما تقولهاش تانى يا بهيم... أنا ماليش إخوات!

تجمدت ملامح الهيكل الذى ضم طفلته التى انفطر قلبها من البكاء فأفلتت من بين شفتاى ابتسامة الظافر وقلت:

- تنسى خالص مكانى... والشارع اللى أمشى فيه ما أشوفكش فيه... فاهم؟

تردد الرجل فى النطق وتراجع بخطوات مرتعشة وقال:

- طب هات أى حاجة أجيب بيها عشا للبت.

بتقزز ألقيت له ورقة مالية تكفى لشراء لقيمات لا تسمن ولا تغنى من جوع وتداعت على ذاكرتى كل أيام الجوع الذى اعتصر أمعائى بعدما انتقل أبى للقاء ربه وتركنى لتربية ثعبان صغير بات لياليه الأولى فى أحضانى فأجزلت له العطاء، وأضمر لى الغدر بعدما لف جسدى وحفظ مقاسه وأبعاده وتهيأ تمامًا لمهمته التى لم أتوقعها، فلما تمكن من ضعفى بقوته ابتلعنى وانتشى لما فعل.

تأملته وهو يهرول ليلتقط الورقة المالية من الأرض فبدا لى كالميت الذى عادت إليه الروح على استحياء بعدما توغلت الخلايا السرطانية وأكلت نسيجه وجردته من الملامح فتذكرت يوم كانت رقبتى تحت حذائه الذى حفر علامات الذل على ملامحى بعدما ابتلع حقى الشرعى فى الميراث بأوراق ملكية مزورة!

فى هذا اليوم ذهبت إليه غارقًا فى ذهولى فاستقبلنى:

- هسمح لك تاخد هدومك وتغور من هنا.

وكأننى مغيب قلت:

- إنت إزاى عملت ده!

بنذالة قال:

- لو ما عملتش كده أبقى حمار، كفاية عليك قوى اللى أخدته فى حياة أبوك.

بحسرة قلت:

- إيدى مش مطاوعانى أقتلك يا ابن أبويا.

بغلظة قال:

- ماشى يا حنين، شوف لك سكة يللا.

لم يغادر ذاكرتى هذا المشهد الذى خرجت فيه لا أملك ثمنًا لوجبة إفطار مكونة من قطعة خبز جافة ولا إصابتى بجلطة القلب التى أسكنتنى فراش إحدى المستشفيات الحقيرة أتمنى من الله الموت فلم يهبنى إياه.

وكأن الله أرادنى حيًا لأنه قد كتب لى رزق لم أعلم من أين جاءنى بعدما أتم شفائى والتحقت بأعمال بسيطة

تكاثرت أرباحها ببركة قدرها الله حتى وصلت إلى ما لم أكن أحلم ونسيت تمامًا أخى الذى عاد إلى الظهور على سطح أيامى فى هيئته الجديدة التى رسمتها الأيام على وجهه وحفرتها على جسده حتى وصل إلىّ بعد ما وهبته الأيام الوهن والجوع والمرض الخبيث.

ازداد بكاء الطفلة بعدما دفعته بقدمى فتجمهر المتطفلين من الجيران وسمعت من بينهم صوت يقول:

- بقى الأخ يعمل كده فى أخوه... الرحمة إتعدمت من قلوب البشر!

بكلتا يداى دفعتهم جميعًا فانسكبوا على الرجل والطفلة ليزداد الخليط عفنًا وأغمضت عيني وصرخت فيهم:

- كله يطلع برة يا بهايم.

ألقيت بهم جميعًا خارج عالمى وانفردت بنفسى وقلت " غادرنى قلبى، فلا تلومونى ".

* * *

نعمة

لم يكف أبى - رحمه الله - عن ترديد مسببات عشقه لقطعة الأرض التى اشتراها لتكن لنا سترًا بعد صعود روحه إلى سماء الطيبين، فاعتادت آذاننا - أنا وأخوتى - على سماع هذه الكلمات التى كان ينثرها من بين شفتيه مصحوبة بابتسامة تتأرجح بين الرضا والسماحة:

"الأرض دى يا ولاد كلها بركة.. ده كفاية إنها فى جيرة المشايخ وقدام بيت ربنا وهتقربكوا منه».

غمرنى طيف أبى الذى دق أبواب أحلامى مكررًا وصيته بعد رحيله بألا نفرط فى هذا الكنز الذى لا تعوضه أموال الدنيا الزائلة، فكان له ما أراد بعدما اتحدت الكلمة بينى وبين أخوتى على بناء هذه الأرض لتكن مباركة بجوار بيت الله ومعمورة بروح أبى الطيبة التى شعرت بها تحلق

فوق وتدنو منى أحيانًا لتربت على ظهرى الذى انتصب فى حضرة عمال البناء الذين كلفتهم ببناء حلم أبى.

انتصف نهار هذا اليوم فاستعد العمال للمغادرة قبل مغيب الشمس التى لوحت لى بعدما اختليت بروحى أتأمل القطع الخرسانية التى وقفت شامخة حتى جاء الليل الذى قذفنى خارج البناية لأسمع نداء رقيق:

- إفتح اللمبة اللى على عمود الكهربا دى يا ولا.

بحثت عن مصدر الصوت فوجدته لسيدة عجوز تقف فى شرفة منزلها المجاور لنا فانحنيت والتقطت قطعة خشبية طويلة ضغطت بها على زر إضاءة المصباح العمومى الذى أعاد الشارع إلى نهار منير فوصلتنى دعوة دافئة خرجت من قلب السيدة وعبرت من بين شفتيها:

- روح يا ابنى ربنا ينور طريقك.

ترطبت روحى التى يبستها قسوة عباد الله بعد دعاء هذه الجارة التى أعادت النداء بحميمية كأننى ولدت على يديها:

- ما تمشيش قبل ما تدخل تصلى العشا جماعة يا ولا.

ابتسمت لها خجلًا وأومأت برأسى وأنا أتوجه إلى المسجد المقابل لتستقبلنى لافتة خشبية مثبتة على الحائط بجانب الباب مكتوب عليها بخط منمق " تبرعوا لتعمير المسجد ".

بعد أذان فجر اليوم التالى عاد ظهرى للانتصاب فى البناية المباركة انتظارا لمجىء جيش العمال المكلف ببناء الحلم الذى طالما داعب مخيلة أبى وصارت وصيته قبل مماته فاستقبلنى النهار الذى أهدانى رؤية وجه جارتى العجوز الزاهية التى أهدتنى البهجة المجانية عندما قالت:

- صباحك فل يا ولا.

ملأت صدرى بهواء الصباح النقى وقلت:

- صباح الفل يا ست الكل.

بتلقائية ونصف ابتسامة قالت:

- إنت هتعاكسنى يا واد يا حلو.

جلجلت ضحكتى وهمهمت بالانصراف فقالت:

- ما تقفل اللمبة اللى فتحتها بالليل يا حمار.. هو أنا لازم أقولك!

قالتها ولوت شفتاها فى طفولية محببة فازدادت ضحكتى بعدما اختطفتنى نظراتها الحانية وتأملت وجهها الذى انعكست عليه أشعة الشمس فحولته إلى قطعة من الذهب الرائق.

بنفس العصا التى وضعتها بجانب العمود فى المساء أغلقت زر الإنارة والتفتت إلى سيدتى الجميلة التى تأملتنى و ابتسمت وقالت:

- إستنى بقى يا ولا.. إياك تمشى.

قالتها وغابت فى الداخل لدقائق فتوقعت أن تلقى لى بقطعة من الحلوى التى شعرت بمذاقها السكرى فى فمى

وأنا أتأمل مسكنها المتهالك الذى يقف فى هذه المكان منذ عشرات السنين فبدا كأنه قطعة أثرية فقيرة تمثل ثراؤها الوحيد فى وجود هذه المسنة الطيبة التى عادت ببطء إلى الشرفة وفى يدها زجاجة بلاستيكية وقالت لى بلطف:

- مد هنا يا ولا، هحدف لك إزازة المية دى تبل ريقك.

اقتربت ووقفت تحت الشرفة مباشرة فقالت بحزم:

- إبعد شوية يا حمار عشان الإزازة ما تنزلش على راسك... إنت سلامتك عندى بالدنيا.

لم أملك سوى أن أضحك وأنا أرفع يدى عاليًا لأستقبل الزجاجة التى ألقت بها وكيلة ملائكة الحنان فى الكون ليستقر ماؤها العذب فى جوفى وجوف عمال البناء الذين انتشروا كالنحل لبناء الخلية واشتدت الشمس مع أذان الظهر الذى لحقه المؤذن بصياح جهورى منفر:

" يا عباد الله... تبرعو لتعمير بيت الله... ده فرض وواجب عليكم ".

انتهينا من آداء الصلاه وخرجت لتستقبلنى الجدة التى ابتسمت وقالت بخجل:

- إنت جيبت عيش يا ولا؟... أصلى جعانة وما أكلتش من امبارح.

توقفت الكلمات على لسانى وانصرفت من أمامها دون إجابة... فلم أملك من الكلمات ما يقال قبل أن أذهب إلى أقرب مطعم وألتقط ما تيسر من الخبز والفلافل بالجنيهات القليلة الساكنة فى جيبى.

عدت إلى الجدة وصعدت منزلها لأول مرة فاستقبلتنى بجلبابها الأسود ووجهها الأبيض ويديها الخشنة التى نافست حنان كل أيادى النساء الناعمة عندما التقطت يدى بعدما تركت لها الطعام على المنضدة الخشبية الفقيرة والوحيدة فى الغرفة وقالت:

- هتمشى من غير ما تفطر مع ستك نعمة!

بإريحية دخلت وجلست على الأرض أمام الملاءة الصغيرة التى فرشتها لتضع عليها الطعام واقتسمنا رغيفًا من الخبز بعدما قالت لى:

- قعدة الأرض حلوة يا ولا... إحنا منها وهى مننا.

أكلنا حد الشبع فقامت الجدة والتقطت رغيف الخبز المتبقى وقامت بتقطيعه إلى قطع صغيرة جدًا

ونثرته على سور الشرفة الصغير لتتجمع طيور الله الحرة وتلتقط رزقها المكتوب فقلت لها معاتبًا:

- كنتى سيبى الرغيف يمكن تجوعى بعد شوية يا حاجة نعمة.

التفتت لى بحدة وقالت:

- أنا أخدت رزق وده رزق الطير... هتتدخل فى توزيع أرزاق ربنا يا حمار!

بللتنى برذاذ الحرج ثم قامت بتجفيف روحى بمنشفة الذكريات التى أخرجتها من خزانة قلبها عندما

وقفت إلى جوارى فى شرفتها وقصت لى كيف كانت طفلة مدللة ثم شابة جميلة ثم أم تحملت كل صفعات الأيام حتى نجحت فى تزويج أبناؤها الثلاثة بعد وفاة زوجها، فكانت لهم الأم الحنون والأب العامل حتى أقعدها المرض فتنكر لها الجميع حتى أبناءها وبقيت وحيدة فى هذا القبر تنتظر قضاء الله.

على استحياء قلت:

- وعايشة إزاى يا حاجة نعمة؟

ابتسمت وقالت بخجل:

- ربنا ما بينساش حد يا ولدى.

أومأت لها وهممت بالانصراف لمتابعة البناء فشدت على يدى وقالت فى حنو:

- إبقى إسأل على ستك نعمة... ما تعملش زيهم.

أومأت ووعدتها بزيارتها يوميًا فلحقتنى بدعوتها:

- ربنا يحميك يا ضنايا وما يورينى فيك سوء أبدًا.

خرجت من منزل الجدة نعمة بعدما قامت بتصفية الشوائب من روحى التى اختطفت قطعة منها إلى الأبد فحمدت ربى على هذه النعمة وقرأت الفاتحة لوالدى الذى أوصلنى إلى هذا المكان.

تكررت زياراتى اليومية للجدة نعمة التى لم أذق من الجمال شيئًا يساوى كوب الشاى الصغير المصنوع من يديها وكررت هى ندائى باللقب المميز عندما تسمع طقطقة يدى على الباب:

- إنت جيت يا حمار؟ ما تدخل على طول... هو أنا شغالة عندك عشان أقوم أستقبلك!

لأسبوع كامل تيبست روحى واقترب عقلى من الجنون بعدما حرمتنى إصابتى بالحمى من رؤية الجدة التى اكتشفت أن احتياجى إليها أضعاف أضعاف حاجتها إلى.

لم أطق صبرًا وأطلقت اللعنات على تعليمات الأطباء بعدم الحركة وارتديت من الملابس أثقلها وتوجهت إلى قبلة الحنان الذى اكتشفت منبعه فتسمرت قدمى عند مدخل الشارع الذى اكتظ بالناس الغارقين فى الظلام.

حاولت اجتياز الجموع الواقفة بعشوائية فاستقبلتنى الشرفة التى أغلقت أبوابها فسألت أحد الواقفين:

- هو الحاجة اللى هنا جرالها حاجة؟

بأسى مفتعل قال:

- امبارح شمينا ريحة وحشة قوى.. طلعنا لقيناها ميتة.

قالها وهرول إلى صلاة العشاء بعدما أقام المؤذن للصلاة، لحقته ووقفت بين المصلين تبلل دموعى روحى قبل وجهى وشعرت بوخزٍ حادٍّ فى قدمى التى وقفت على السجادة الناعمة الثمينة التى اشتراها القائمين على خدمة المسجد من صدقات المتبرعين.

انتهت الصلاة واعتلى المنبر أحد المتسابقين فى تربية اللحى وقال:

- يا إخواننا... محدش يمشى... إحنا هنبنى أعلى مئذنة فى البلد كلها ولازم كل أهل الخير يشاركوا...

ده واجب عليكم كلكم!

قالها بلهجة تحذيرية فتمنيت فى هذه اللحظة أن ألتقِ بأبى للحظات معدودة لأخبره بأن من كانت تستحق أن نطلق عليها حسن الجوار قد رحلت.

* * *

قصة حياة ميت

بالأمس اتخذت قرارى وعقدت النية على أن يتم الأمر فى هدوء...

أحضرت ما يضمن نجاح المهمة التى استقر بى الأمر عليها، جاكوش ثقيل، ترباس نحاسى، وبعض مسامير الصلب، لابد من إغلاق الباب من الداخل غلقًا محكما، فلا أحد يسلم من حماقات الآخرين.

ترى كم مرة فى الأفلام أحبطت محاولات الانتحار بسبب خطأ ساذج أو سهو طفيف وقع فيه الشخص المقبل على هذه التجربة الحاسمة وتم الإنقاذ السخيف البارد فى اللحظة الأخيرة!

بحثت كثيرًا وأفنيت أجولة من الوقت والجهد للوصول إلى أفضل طريقة للفناء، وكعادتى استقريت على

الطريقة التقليدية - كما تعودنا أن نفكر - اخترت نحر شراييني بشفرة حادة وليكن ما يكن.

لابد أن أنهى هذه المهزلة بشكل مسرحى يليق بجلال الحدث، ثبتت الترباس النحاسى فى ظهر الباب بالمسامير التى طرقت على رأسها كما تعودت رأسى على الطرقات اللا منطقية طوال حياتى، فلتذق المسامير بعضًا مما تذوقت.

ها أنا الآن منفردًا بنفسى وبصحبتى شفرتى الحادة التى غرست نصلها بمعصمى فأصدر حفيفًا له خدر لم يصل إلى حد الألم فخيل إلى أننى أكتشف لذة جديدة، لذة الموت!

تحفزت الشفرة الحادة وأشبعت رغباتها الدفينة وغاصت فى دمائى الساخنة التى سالت من معصمى و...

اللعنة... من قام بفتح النوافذ؟

ما هذه التخاريف!

فقد قمت منذ دقائق بتشميع النوافذ ولكنى لا أعلم كيف اجتاحت هذه البرودة أطرافى الشمالية والجنوبية، وأشعر بجيشٍ من النمل الأحمر قد أقام بين جلدى ولحمى وعظمى وأثارته فجأة تيارات الهواء بعدما اعتاد على دفء الدماء فثار وتحرك بعشوائية أثارت جنونى.

نعم... هذا النمل احتلنى أيضًا يوم خرجت أهتف (عيش... حرية... عدالة اجتماعية) فأسقطتنى كائنات مصبوغة بالأسود تحمل بين أيديها العصى والهروات التى تركت علامات أصبحت جزءًا أصيلًا من جسدى فاكتفى لسانى بالصمت العاجز!

نشر الخدر قواته فى جسدى حتى وصل إلى الميناء الشمالى الغربى فى باطن قلبى الذى انتفض وتفجرت بداخله ينابيع الألم وتناثرت شظايا كالتى مزقت جسد صديقى الذى داسته الأقدام عندما حاول لملمة لحمى الذى تكوم على الأسفلت بعدما هرسته العصى الآمرة بالصمت!

وكأن الروح غاز يتدافع بداخل أنبوب، شعرت بها تصعد حتى توقفت أعلى صدرى كأنها تودع رئتاى، فتزلزلت ذرات جسدى فى هذا الوداع بعد رحلة حياة كتبت فيها قسيمة أحلام انطفأت قبل أن تولد.

تراخيت تمامًا انتظارًا للحظة الفارقة التى ستحسم هذا العبث إلى الأبد..

صوت عميق مكتوم يتردد صداه بداخلى، امتد وتحول إلى طنين يدك أذنى..

ما هذا!

ماهذا الضوء الأصفر الذى تسلل إلى عينى!

أغلقها بكل قوة قبل أن أفتحها ببطء وتبدلت تيارات جسدى البارد بحمم بركانية كادت تحيل جسدى إلى كتلة من الشحم المحترق.

تحسست معصمى وأدركت أننى لازلت رقمًا مقيدًا بسجلات الأحياء والتفتت لأجد بجانبى ترباس نحاسى

وبعض مسامير الصلب وجاكوش ثقيل وشفرة حادة لا زالت تنام فى غلافها الفضى وورقة بائسة مكتوب عليها بخط ردىء:

(عشبة برية بريئة حلمت بالحياة والنور، شقت طريقها وانطلقت من قلب اليابسة، داستها الأقدام والحوافر قأيقنت أن ليس لها مكان بينهم واختارت الموت...)

***

ما لا تعلمون

يقولون أننى فقدت عقلى وصرت فى عداد المجانين بعدما خرجت للمرة العاشرة بعد الألف للقيام بمهمتى المقدسة التى لن يقوم بها أحدٌ سواى..

هل سيهتم أحدٌ غيرى بالحفاظ على ثروتى!

ثروتى المكونة من جوهرتين تطابقت محاسنهم فأصبحا كالبدر الذى انشطر إلى نصفين أسميت النصف الأول " كامل " والنصف الثانى " جمال "؛ تجلى اسم الله العدل فى العدل بينهم فاقتسما بياض البشرة وسواد الحدقة والشعر وكأن وجهيهم لوحة بديعة تجمع الليل بالنهار فى آنٍ واحد.

* * *

استجاب الله لدعائى الذى سهرت فى حياكته من السنوات خمس حتى اكتمل ثوب التضرع فوهبنى هذه

الثروة بعد فقر جاءت بدايته بعد مرور تسعة أشهر على زواجى الذى وضعنى فى خانة المرأة المنقوصة ذات العيب عندما بدأ لسان حماتى يردد فى تلميح أحيانًا وتصريح أحيانٍ أخرى وهى تتحسس بطنى:

- إيه يا بنتى... مفيش حاجة فى السكة بقى!

ضربتنى أم زوجى بمعول الكلمات ضربات متتابعة متتالية فتحولت حروفها إلى حصار لا مجال للفرار منه سوى بابتسامة باردة حزينة عندما قلت:

- كله بأمر الله يا ماما.

لم يشبع عطش السيدة سيل كلماتى الجاف فأكملت حصارى بتهديدات ناعمة فرشت بها أرض الخوف فى فضاء روحى عندما أخبرتنى أن ولدها يحق له الزواج بأخرى وأخرى وأخرى لتضخ له أطفالًا يملأون الدنيا ضجيجًا عوضًا عن أرضٍ بورٍ ابتلاه الله بها.

وكأن ابتلاء الله لابد أن يأتى محكمًا ليصيب العمق الذى نزف دمًا عندما جاء زوجى فى ذلك اليوم شاحب الوجه شحيح الكلام قبل أن يتجه إلى المضجع دون إلقاء التحية فلحقته واقتربت منه لأصطدم بما فعل بعدما ابتعد بقسوة وقال:

- عاوزة إيه!

- مالك يا حبيبى؟

- ولا حاجة... عندك جديد!

- فيك إيه بس؟

- ولا حاجة يا ست هانم... ما أنا بقيت تريقة اللى يسوى واللى ما يسواش بسببك.

أصابنى دوار أطاح بثباتى فتماسكت بعدما اقتربت خلايا جسدى من الانهيار وقلت بصوت يجاهد الخروج:

- أنا حصل منى إيه؟

بغلظة قال:

- خليتى اللى يسوى واللى ما يسواش يشكك فى رجولتى... غورى من وشى.

بخفوت قلت:

- حصل إيه بس؟

بعصبية قال:

- بسببك إتقال لى إنى مش راجل ومش عارف أجيب منك حتة لحمة حمرا!

قالها واستدار وتركنى تائهة بين طرقات الألم الذى اختلى بى عارضًا على عينى كل صوره السوداء التى جاءت إحداها فى كادر به أسرة ينقصها فرد عندما ذهبت لزيارة أخت زوجى التى تعمدت إخفاء أبناءها عنى وكأننى وباء سينهش أجسادهم الصغيرة فقلت لها بنية طيبة:

- فين محمد عاوزة أسلم عليه قبل ما أمشى.

تلعثمت وقالت:

- ده والنبى عيان يا أختى وقاعد عند أمى.

ابتسمت ودعوت له بالسلامة واستأذنت وما إن أفلتت قدمى بضع خطوات من باب المنزل حتى جاءنى صوت الطفل الذى قال بصوتٍ عالٍ سمعته بوضوح:

- خلاص مشيت يا ماما؟

رغمًا عنى اقتربت من الباب لأسمع أخت زوجى ترد:

- أيوة يا حبيبى، إطلع خلاص، ربنا يحميك من عينيها.

ما بين ضباب الرؤية والألم انحسرت وأفلتت من عينى دمعة تحولت إلى بكاء هيستيرى واصل الهطول من عينى حتى وصلت إلى منزلى ليستقبلنى زوجى الذى تجاهل حالتى وقال بجمود:

- أنا هتجوز.

وقعت حروف الكلمة على أسماعى فانتشر فى أعضائى شلل مؤقت انتهى بإغماءة بعدما قال:

- أهو هجيب واحدة تعوضنى بدل اللى خسارة فى جتتها اللقمة اللى بتطفحها.

* * *

عدت مجددًا إلى الحياة محاطة بوسائد بيضاء ينام أسفل جسدى سرير حديدى يقف بجانبه عمود حديدى معلق أعلاه عبوة بلاستيكية بداخلها سائل يرسل نقاطًا بداخل خرطوم بلاستيكى متصل بإبرة سكنت بنعومة فى وريدى الذى انتفخ فحفز ذراعى الذى سيطر عليه الخدر فتحركت حركة يابسة عصبية قبل أن يدخل فجأة الطبيب الذى قال:

- بالراحة يا مدام... لازم تحافظى على نفسك عشان خاطر الجنين.

سقطت الكلمة على أذنى فأصابتنى بكدمة سماعية مفاجئة أسقطتنى فى هوة من الذهول الذى انتزعنى منه زوجى الذى جلس بجانب قدمى وقال:

- الدكتور بيقول إنك حامل فى توأم.

بآلية وزعت نظراتى بين زوجى والطبيب وكأننى فى حلم تمنيت ألا ينتهى واستجاب الله لدعائى وحدثنى على لسان الطبيب وقال:

- دى معجزة يامدام... ومن فضلك لازم تحافظى على نفسك علشان ما يحصلش مشاكل فى الحمل.

سمعه زوجى فبلل قدمى بسيل من المياه الشفافة التى تساقطت من عينه، احتسبتها دموعًا بعدما رفض عقلى استيعاب ما يحدث حتى مرت شهور الحمل التى لم أجد فيها أحن من دبدبة أطراف أطفالى داخل أحشائى وكأنهم فى لهوهم يربتون على روحى ويرسلون لى رسالة مفاداها (اصبرى يا أمى... نحن قادمون).

لم ينقطع الحديث بينى وبينهم وأودعتهم كل أسرارى وآلامى وصنعت منهم خزينتى الخاصة حتى جاءت لحظة الميلاد ليستنشق أطفالى أول أنفاسهم فى دنيا الله.

وكأن الله اختص بعضًا من عباده ليكونو سفراء للبلاء فى الدنيا... كنت أنا... بعدما احتضنت قطعتا اللحم الأحمر فى حضور حماتى وابنتها التى قالت لها:

- العيال زى فلقة القمر... شايفة يا أما الواد عيونه سودا وحلوة إزاى!

اقتربت حماتى من الطفلين وقالت:

- طالعين لأبوهم حلوين يا بت.

بوجهها الذى بدا لى قطعة من جهنم اقتربت وطبعت قبلات لوثت بها جبهة أطفالى ونظرت لى نظرة لم أفهمها فلم اكترث وانتظرت أن اختلى بنفسى لأرضعهم بعدما أصابتهم حالة بكاء هيستيرية غريبة شاركتهم فيها بعدما اصطدمت بجفاف صدرى المفاجئ من الحليب!

* * *

قصصت على " كامل " و " جمال " هذا الأمر عندما وصلا إلى المرحلة الإبتدائية يحملان ملامح الجمال

الناقص بعدما تضاءلت أعضاؤهم وهزلت بنيتهم الجسدية واختفت المناعة من خلاياهم فصرت لهم أمًّا وخادمة وعاشقة وساهرة تحت أقدامهم فى أيام مرضهم المتصلة التى ما إن انقطعت عنهم حتى تجددت من تلقاء نفسها وكأن المرض كتب لهم جليس غير مفارق.

كيف لا أسهر على راحة قطعتان خرجا من جسدى ووهبتهم من روحى، فهم منى وأنا منهم بعدما حرما مقدمًا من حنان ورعاية الأب الذى ما إن رآهما واطمئن على رجولته وقدرته على الإنجاب فتناسى تمامًا أن له أطفال لهم عليه حق.

لم أهتم بما رأيته من زوجى الذى ازدادت معاملته سوءًا وكأنه يعاقبنى على إنجاب طفلين، وبعدها تأكدت أنه كان فقط يريد إنجاب قطعة واحدة تثبت رجولته وفحولته أمام أهله وأصدقائه!

* * *

لا أنسى هذا اليوم بتفاصيله الدقيقة عندما جاء " كامل " بصخبه المعتاد وغمرنى بقبلات لا نهائية فتشككت فى تدليله لى وقلت:

- عاوز إيه يا حبيب ماما... وراااااك إيييييييه؟

تبادل " كامل " النظرات مع " جمال " الذى التقط الكلام وقال بدلال:

- ماما حبيبتنا ونفسها تفرحنا... صح يا مامتى؟

اقتربت على الذوبان من قبلات كامل الذى اقترب من أذنى وقال:

- رحلة للأهرامات يا ماما تبع المدرسة ونفسى أطلع أنا وجمال.

ما بين قبلات كامل وإلحاح جمال لم أملك رفاهية الرفض الذى دق قلبى فتجاهلته وساعدتهم فى فسخ العلبة الخشبية التى أعددتها لهم لاقتطاع جزء من

مصروفهم الشخصى بداخلها وأعددت لهم العصائر فى زجاجات ملونة والطعام الذى اختارته شهيتهم لتبدأ رحلتهم إلى الأهرامات ولأبدأ أنا رحلتى إلى سريرى الذى اشتاق إلى جسدى الذى سكنه الإرهاق فاستسلمت إلى النوم بعدما ودعت أطفالى.

غادر أطفالى المنزل واقتحموا عالمى السرمدى فتبعتهم فى الحلم وهم فرحين تغمرهم النشوة ويعلو رؤوسهم طير غريب الشكل رافقهم وصوب نظراته الحادة إلى عينى فى تحدٍ فناديت عليهم، لم يصل صوتى الذى حجبه ضخبهم الذى عبأ المكان فهرولت خلفهم حتى سقطت على الأرض بعدما دارت الدنيا بى دورات عشوائية مقبضة واحتل أذنى صوت صفير ارتفع حتي اقتربت من الصمم فصرخت صرخة أيقظتنى ليستقبلنى رنين الهاتف الأرضى الذى لم أستطع الاستجابة له بعدما تشوشت الرؤية فتحاملت على نفسى واقتربت من

الهاتف بخوف وكأنه يخفى بداخله ثعبان سينقض على عنقى ويلتهمها.

رددت بصوت مرتعش فجاءنى صوتٌ صادم قال بجمود:

- حضرتك والدة الطالب كامل وجمال؟

- أيوة.

- للأسف الأتوبيس عمل حادثة وعاوزينك فى مستشفى.....

***

لا أعرف كم مر من الوقت وأنا فى غيبوبتى بعدما رأيت جثة " جمال " تنام بجوار جثة " كامل " الذى قبض على ورقة مالية كان يستعد بها لشراء قطعة حلوى.

لا أعرف كيف انقطعت الكلمات من لسانى وأصبحت بخرس لا أود الشفاء منه، ولا كيف اختفى

السواد من عينى التى أصبحت بيضاء تمامًا من البكاء وافترش روحى التى تحولت إلى أشلاء.

لا أعرف كل هذا... ولكننى أريد أن أعرف لماذا يمنعونى من القيام بمهمتى المقدسة التى لن أكف عن القيام بها حتى تنقطع روحى وتغادر جسدى!

خرجت كعادتى فى السادسة صباحًا وفى يدى زجاجتين من الحجم الصغير واحدة تحمل فى جوفها عصير الجوافة الطبيعى الذى أعددته بيدى والأخرى تحمل فى جوفها الماء، وفى اليد الأخرى كيس بلاستيكى به بعض طعامهم الذى لم يدخل جوفهم وهرولت إلى حيث يسكن أطفالى وطرقت بعنف بوابة هذا المكعب الحجرى الذى يحجبهم عنى.

ألهذه الدرجة تكرهون المدرسة يا أطفالى!

* * *

حورية

" عفوًا... المكان مراقب بالكاميرات "

تأملت عينى الحروف الذهبية البارزة على القطعة المعدنية المصقولة المثبتة على الباب الخشبى فى عيادة طبيب المخ والأعصاب بعدما امتدت مدة انتظارى مائة دقيقة جالسًا على مقعد لين معبأ بمادة تنافس السيليكون احتوت جسدى الذى عبئ به الألم واختلط ببرودة مكيف الهواء ليتحول إلى ألم مُكيف!

أرانى قد تصادقت مع هذا الألم الذى دفعنى لملاحقة مساعدة الطبيب المسؤولة عن تنظيم دخول المرضى بالأسئلة:

- لو سمحتى... هو الدكتور لسه هيتأخر عن كده؟

بهدوء ولطف أجابت:

- والله هو فى الطريق يافندم... بنعتذر عن التأخير ده.

أجبتها بابتسامة وعدت إلى مقعدى أتأمل تلك الإطارات المذهبة التى احتضنت عشرات الشهادات العلمية التى حملت اسم الطبيب وكأنه احتكر علوم الأرض لنفسه فابتسمت رغمًا عنى لهذا الخاطر الساذج.

ارتفعت أنات بعض الجالسين فى تململ بفعل سيطرة الألم وبرود انتظار الطبيب الذى تأخر عن موعده ساعتين، حتى رُجحت كفة الألم فى ميزان السيدة الجالسة فى المقعد المقابل فصرخت صرخة اهتزت لها قلوب الجالسين لتنتفض مساعدة الطبيب وبصوت دافئ مخملى الملمس قالت بعدما ربتت على كتفها:

- ألف سلامة ياحبيبتى... والله حاسة بيكى.

تابعتها بعين أخرى عندما طبعت على رأس السيدة قبلة بنكهة حانية وقالت:

- الدكتور مش هيغيب والله يا حبيبتى... إتطمنى.

ردت السيدة بوهن:

- كل مرة بفضل قاعدة فى العذاب ده يا بنتى... ربنا يقصر عمرى ويرحمنى.

قالتها السيدة لتتفتح أبواب الحوارات الجانبية المغلفة بنظرات التعاطف عندما أخبرتنا أنها تنتظم فى المتابعة عند هذا الطبيب منذ شهور وتجتهد للحضور مبكرًا كى تتجنب داء الانتظار الذى يحفز الألم الكامن.

حضرت سيرة الألم فجلجلت ضحكاته داخل جسدى لينتفض جسدى حتى اقتربت من الانزلاق تحت مقعدى فالتقت عينى بنظرات حانية جاد بها وجهها الأبيض الذى يحمل قطعة من نور الصباح سحبت من جسدى الألم وبدلته بالاطمئنان، ابتسمت لها فبادلتنى اياها وقالت:

- ألف سلامة عليك.

قالتها فشعرت بدفئ أناملها البعيدة عن جسدى القريبة من روحى التى أضاءت مصباح المشاعر الشفاف لتخبرنى أن شيئًا ما يداعبها بنكهة الفانيليا.

تلذذت بتلك الرعشة التى دقت أبوابى عندما رأيت هذا الملاك المجسد فى صورة مساعدة طبيب يحلق فوق رأسى وكأنه يخبرنى أن " لن أتركك... سأظل بجانبك... اطمئن ".

سقطت من حيز الواقع لتختطفنى عوالم الجمال والمشاعر التى غمرتنى لترتطم أذنى بصرخة عصرت أعصابى خرجت من جوف السيدة التى كانت تجلس فى المقعد المقابل قبل أن تفترش الأرض بعدما اشتبك جسدها مع جيش من الموجات الكهربية فصارت كمن ينازع الموت حتى انخلع الثوب عن نصفها السفلى فانتفضت رسول الستر والرحمة وغطت جسدها بملاءة بيضاء كقلب مؤمن لتهدأ بعد لحظات فاقتربت منها أنا ورسول الرحمة لنرفع جسدها المُبتلى عن الأرض.

ما بين العظمة والحنان كانت هذه الإنسانة التى التقت عينى بعينها التى تحمل لون السماء؛ وقف فى حراستها خط ناعم من الكحل الأسود، وأنف كحبة اللوز

توسطت وجنتاها اللتان احمرتا خجلًا فنظرت إلى أصابعها التى خلت من خاتم الزواج وابتسمت لها وقلت:

- والله خير بإذن الله.

استراحت السيدة المسنة على سرير الكشف قبل أن يحضر الطبيب وتتالت عليه الحالات حتى جاء دورى وكنت الأخير فلم يكن بصالة الاستقبال سوى قطعة الجنة وأنا فنادتنى:

- إتفضل يا فندم...

ابتسمت لها وغمغمت، فمن غير المعقول أن أصرح لها بما يعتمل بداخلى فى هذه اللحظة التى توقف فيها الزمن عندما لاحظت ارتباكى فابتسمت لتقترب وجنتاها من ملامسة أقصى حدود الجمال.

تنفست فى هدوء ووقفت فى مواجهتها على حافة الجنون واقتربت وقلت بهمس:

- تقبلى تتجوزينى؟

* * *

الطريق صفر

انتصف نهار ذلك اليوم الذى خرجت فيه معبئًا بحماسة شاب طازج حمل أوراق تثبت اكتمال رحلة تلقينه ما أرادوه ليصبح مؤهلًا لحمل لقب خريج جامعى يحبو على سطح الغد.

اختبأت شمس هذا اليوم ووثبت فوقها كتل من الضباب الرمادى الذى حجب الرؤية فتعرجت خطواتى وأنا أتحسس الفراغ حتى وصلت إلى مفترق طرق تكاثرت فروعه فالتصقت قدمى في الأسفلت الأسود الذى قبض على قدمى وغرس مخالبه بين لحمها وعظمها فصرخت صرخة اختفى صداها بين أصوات البرق والرعد والمطر الذى سال من عين السماء بلا انقطاع.

ما بين الألم والرعب تأرجحت وأنا أنتزع أقدامى التى انسلخ لحمها عن عظمها وتجلطت الدماء بين الأصابع فهرولت عشوائيًا دون أن أهتدى إلى أى طريق.

هدأت السماء قليلاً وخفتت أصواتها وظهرت من بعيد بعض الوجوه اللامعة التى اصطفت على نواصى التيه والتصقت فى أفواههم أبواق نحاسية خرجت منها أصوات مجنونة وناداني أولهم وأشار إلى أحد الطرق المظلمة وقال:

- أقبل... طريقك من هنا.

قاطعه آخر يقف على ناصية مظلمة أخرى وصرخ فى وجهى:

- أقبل... طريقك من هنا.

وكأن فيما بينهم اتفقو على تضليلى وبعثرة خطواتى التى غلبت عليها رعشات أربكت مفاصلي بعدما ارتفع صوت النداءات التى خرجت من حناجر كلٍّ منها يدعونى إلى طريق أجهل مساره!

على جانبى لمحت والدى الذى وقف مكتوف الأيدى دامع العين لا يكاد صوته يغادر حلقه، شحذت بعضًا من صوتى وقوتى و قلت له:

- أى الطرق طريقى؟

انكسرت نظراته وارتعشت شفتاه فقلت:

- دلنى.. أرجوك!

أغمض عينيه وبللت دموعه لحيته البيضاء الطيبة وخرج من بين أسنانه أنين مكتوم اندثر بعدما عادت الأبواق إلى الصياح واختفى فى زحام الأقدام التى هرولت وذابت فى طرقات يجمعها الظلام الذى انتشر بين الطرقات وفى السماء فأصبحت كل الطرق سواء إلا من طريق لمحت بداخله شىءٍ ما انعكس لمعانه فى عينى فهرولت إلى حيث لا أدرى!

ركضت بكل ما أوتيت من قوة بعدما تجاهلت كل الأبواق وسيطرت على حماسة لم يكن لى بها عهد فقابلتنى تيارات الهواء المعاكسة التى أعمت بصرى وتدافعت دقات قلبى فكادت تهشم ضلوعى!

ازداد اقتراب الجسم اللامع فألهب حماستى لأواصل الركض بهرولة من اختلط عليه العقل والجنون.

توقفت للحظات بعدما جف حلقى واحتوانى دوار شديد فحاولت تجميع شتات نفسى ولملمة فتات قدمى التى سالت دماؤها الساخنة على الأسفلت البارد!

جثوت على الأرض فاصطدمت يدى ببعض العظام اليابسة التى بثت الرعب فى قلبى فواصلت الزحف حتى اقتربت من الجسم اللامع الذى لم يكن سوى مرآة انعكست صورتى فيها وقد غزت رأسى بعض الشعيرات البيضاء المذعورة وشحب لونى تمامًا فصرت كمن غاب فى قبرٍ لألف عام وعاد إلى عالم الأحياء خارج نطاق الزمن.

من بين العظام المنثورة ورائحة الموتى التى زكمت أنفى ارتطمت عينى بانعكاس المرآة للافتة صدئة ملقاة بجانب الحائط المقبض الذى حفرت عليه خربشات السابقين كُتب عليها كلمات رددتها فى عقلى كثيرًا محاولًا استيعابها:

" أنت الآن فى النقطة صفر... لأنك لم تمض فى طريقك بعد "

* * *

من أنا؟

كالمجاذيب صرت، وتناوبت على عقلى كل مسببات الجنون عندما خرجت إلى الشارع فى منتصف تلك الليلة بهيئة يرثى لها الكافر؛ عاقدًا ذراعى خلف ظهرى الذى انحنى فصرت أشبه بمن يبحث فى الأرض عن شيءٍ ما سقط منه سهوًا...

تلقفتنى نواصى الحارات وبعثرت خطوات أقدامى فاستحال علىّ الوصول، ولكن... إلى أين؟

تلاشت كل ذرات إدراكى لمحيطى عندما ارتطمت ذاكرتى بحقيقة أمرى فأنا.....!!

اختطفنى من بين جوانب التيه النفسى صوتٌ أجش قذفنى فى فم الرعب عندما قال:

- هاتوه...

قالها فدنا منى قطعتان يحملان ملامح قريبة من البشر، لم يصدر منى أى محاولات لمقاومة الهجوم الذى حدث فصرت كخرقة بالية حملاها بتأفف وأشفقت عليهم من الرائحة التى فاحت بعدما أفرغت حمولة مؤخرتى فى سروالى رغمًا عنى!

لم أتبين ملامح المتحدث الذى تلحف بالظلام المنتشر حتى اقتربت منه فهالنى ما رأيت...

زوجان من الكلاب المفترسة، كُبلت أفواههم بأغطية معدنية متصلة بسلاسل سوداء يُمسك بها رجل اقتصد القدر فى بنيته الجسدية وأعطاه وفرة فى بذاءة اللسان فخرجت من بين أسنانه مخلفات صوتية عندما تأفف من رائحتى التى فاحت وقال:

- حكايتك إيه يا أبو شخة!

حاولت النطق فانحسرت الكلمات فى حلقى عندما استشعرت نظرات الكلاب التى رمقتنى بغضب امتزج

بالاشمئزاز، فثار الرجل القصير وهاجت أعصابه وصرخ فى وجهى:

- ما تنطق يا روح أمك... إنت أخرس!

انقبضت أمعائى وتقلصت عندما انتفضت الكلاب وتحركت فسقطت أرضًا بعدما تجمدت أطرافي.

حاوطتنى صرخات الرجل التى اختلطت بنباح الكلاب فتدافعت موجات الألم واخترقت جمجمتى التى احتلها سؤال واحد " أنا مين؟ "

منذ مولدى وحتى هذه اللحظة لا أدرى من أنا وماذا أفعل...

هل خلقت لأقوم بدور التائه فى هذه المسرحية الغامضة!

من أين جئت وإلى أين سيأخذنى الطريق... هل إلى معلوم يعلوه النور أم إلى مجهول غارق فى ظلامه!

توحشت ملامح الرجل وأغرقنى بالبصاق بعدما سب أمى فتكورت وتقوقعت أطرافى على الأرض وصرت أشبه بالجنين فزأر الرجل وحرر أفواه الكلاب من الأغطية المعدنية فتدلت ألسنتهم المشقوقة طوليًا وسال لعابهم وأطلقهم فحاوطوا جسدى الضئيل وبدأت فقرتهم التى كانوا ينتظرونها!

دارت الكلاب حول جسدى دورات متكررة وكأنها تستعد لتلك الوليمة الفقيرة واقترب أولهم ولعق وجهى فارتفع أنينى وزادت رعشتى بعدما حسم الكلب أمره وغرس أنيابه الحادة اللامعة فى ذراعى ونهش أول قطعة.

لا أدرى لماذا لم يستيقظ الأموات بعد الصرخة التى تحررت من أعماقى واهتزت لها الحوائط الصامتة!

من المؤكد أنهم أدركوا ما يحدث لى فآثروا السكون فى مقابرهم آمنين، وتركونى لهؤلاء الذين سقط اللعاب من أفواههم وتعالت ضحكاتهم على صرخاتى التى خرج من بينها كلمات قلتها رغمًا عنى " كان نفسى أعيييييش"!

أثارت صيحتى شهية الكلاب وازدادت حماستهم فصرت بين أنيابهم مضغة، وقبل أن تكتمل الوليمة سحبهم الرجل بعنف فثارت ثورثهم قبل أن يخرسهم الرجل بإشاراتٍ ما ويدنو منى ويقول:

- يا تعيش حمار... يا تخرس يا أبو شخة!

سالت دموعى واختلطت بدمائى التى افترشت الأرض فوهبتنى شيئًا من الدفء المخادع الذى سرعان ما فقدته عندما أعاد الرجل إطلاق الكلاب التى عادت بعد حرمان فتفننت فى نهش كل ما تطاله الأنياب وتصارعوا على جسدى الذى اقترب من النفاد فتعالت صرخاتى وتعالت معها ضحكات الرجل الذى أعاد سحب الكلاب عن جسدى ودنا مما تبقى من جسدى فصرخت فى وجهه " كان نفسى أكووون! "

بصق الرجل على وجهى وقال:

- يا تكون حمار... يا ما تكونش حاجة خالص...

قالها وأعاد إطلاق الكلاب التى لم تترك فرصتها هذه المرة بعدها طقطقت عظامى بين أسنانها وقضمت مؤخرتى وأنفى وأذنى و.....

ماهذا الجاثوم القابض على صدرى، أشعر وكأن صخرة تزن عشرة أطنان تدحرجت من أسفلى حتى وصلت إلى صدرى فاستوطنت ومنعت عنى ذرات الهواء وحطت بحملها على ضلوعى الهشة التى سمعت صوت طقطقتها يرن فى أذنى.

ألهذه الدرجة تسحب الكوابيس ذرات الهواء!!

حاولت الانتصاب بقامتى فتذكرت الأغلال المعدنية المكبلة بها أقدامى فى السرير البارد القابع فى عنبر (14) بمستشفى العباسية للأمراض العقلية.

تمت

مصطفى حنيجل

2017 / 4 / 14

أقل ما يقال إلى الداعم الأهم فى حياتى:

إلى أمى وإخوتى (نجاة وأحمد)، وقودى فى هذه الدنيا وقوتى وزادى، كلمات الشكر لا تكفى مقابل ما أشبعتم به روحى.

شكر خاص إلى

أهل الإبداع..

إيناس ناصر - رنا جيرة الله - أمنية صلاح - سارة شعلان - الشيماء صلاح الدين -

محمد توفيق لبن - إنجى مطاوع - أحمد جبالى - محمد عبد الفتاح.

والأعزاء..

شيماء الصعيدى - رحيل سمير - إيمان عبد الله - رند طارق - رضوى أبو زيد -

هايدى محمود - محمد المساوى - أحمد مصطفى - عمرو نيكولاس - إيمان وصفى -

هبة أبو عريشة - داليا فهمى - علا المسلمانى - رحمة ماهر - مريم أبو صالح -

إسراء يحيى - لمياء على

عن الكاتب

مصطفى حنيجل

حاصل على ليسانس أداب وتربية قسم علم نفس

شارك فى بعض الكتب الجماعية بتجارب مقالية.

له بعض المقالات المنشورة فى جريدة عين ومجلة كلمتنا وجريدة صوت الشعب وجريدة

أيامنا وبعض المواقع الإليكترونية.

كتاب رجل المستجير (اجتماعى كوميدى) قيد النشر.

الفهرس

الإهداء 5

عود السوس 7

كنت فى رحابها ملكًا 66

سيرك 78

شرف عاهرة 83

لقاء مع شيطانى 90

أنا لا أتجمل، لكنى أتبول 98

رسومى القاتلة 110

رجل فقد قلبه 115

نعمة 120

قصة حياة ميت 131
ما لا تعلمون 136
حورية 149
الطريق صفر 154
من أنا؟ 158
شكر خاص إلى 165
عن الكاتب 166
الفهرس 167